تقديم

كان العلامةُ الجليلُ أحمد تيمور باشا أول من تنبه إلى أهمية الشيخ محمد عياد الطنطاوي في تاريخ علم المشرقيات، حيث بذل الجهدَ في تسقط أخباره زماناً من مختلف المصادر، وسأل عنها علماء الأزهر الشريف، ووسع دوائر بحثه عند المستشرقين، ومن ثم كتب مقالته الشهيرة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»[1]، وقد بادر العالم اغناطيوس كراجكوفسكي في الرد على مقالة العلامة أحمد تيمور، بمقالة عنوانها «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»[2]، ضمنها ذكر أهم المراجع التي حوت ترجمة لسيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ومنها المقالة الشهيرة التي كتبها العلامة J.G.Kosegarten في مجلة Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes, VII /850, 43-67, 197-200 ثم استدرك عليه العالم يوسف غوتوالد في مجلة Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, Iv, 243-248 هذا إضافة إلى الشذرات والنتف الواردة في حرودات كتبه المحفوظة في خزانة الكلية الشرقية، وكذا رسائله المبعثرة من أصدقائه، والتي يوجد قسم منها في مكتبة جامعة هلسنكي، وقرن كراجكوفسكي رسالته للعلامة أحمد تيمور بصورة للقبر الذي يرقد فيه الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وبما يفيد بأن كراجكوفسكي بصدد وضع مصنف لسيرة حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي. لقد كان لرسالة كراجكوفسكي أطيب الأثر في نفس العلامة أحمد تيمور باشا فكتب إليه الرسالة التالية:

---

(١) مجلة المجمع العلمي ـ المجلد ٤، الجزء ٩، أيلول ١٩٣٤ هـ/صفر ١٣٤٢ هـ (٣٨٧ ـ ٣٩١).

(٢) نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد٤، الجزء ١٢ كانون الأول ١٩٢٤م ـ جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ (٥٦٢ ـ ٥٦٤).

سيدي الصديق الأجل؛

تشرفت اليوم بوصول كتابكم الكريم مصحوباً بالصور عن قبر الشيخ عياد وتلك مكرمة عظيمة وهمة شماء وعناية ليست بعدها غاية أذكرها لكم فأشكرها ما دمت حياً، وسننشر في الزهراء ملخص كتابكم ولوح القبر المكتوب عليه بالعربية مع التنويه بأنكم وضعتم ترجمة مفيدة عن الشيخ ستنشرونها مستقلة. وكنت أود أن أطيل لكم في كتابي وأذكر لكم بعض فوائد تهمكم عن الكتب التي دخلت خزانتي حديثاً لولا أنني كتبت لكم هذا وأنا طريح الفراش لمرض ثقيل أصابني من نحو شهر، وقد أخذت الحالة تتحسن ولكن ببطء والضعف شديد جداً حتى أني أتعجب من استطاعتي كتابة كتابي هذا إليكم. وأرجو أن تتقبلوا سلامي الخالص وأشواقي الكثيرة وشكري المكرر يا سيدي العزيز.

١٣ المحرم ١٣٤٨هـ ٢٠ يونيه ١٩٢٩ المخلص: أحمد تيمور[١]

وقد أوفى كل منهما بوعده، فنشرت الزهراء ملخصاً لرسالة كراجكوفسكي[١]، ومن ثم أصدر كراجكوفسكي كتابه عن الشيخ المصري الأستاذ في بطرسبورغ في بداية سنة ١٩٣٠م.

ومن ناحية أخرى، فقد أثير الاهتمام بالشيخ محمد عياد الطنطاوي مرة أخرى في مجلة الرسالة، بمقالة استفهامية عن الشيخ عياد الطنطاوي، رجا خلالها الكاتب ممن يعثر على تاريخ هذا الرائد المجهول، أن يدلي على صفحات الرسالة بالمصادر التي يمكن الرجوع إليها عن شخصيته[٣]، وقد نبه الأستاذ سعيد الأفغاني

---

(١) انظر، مع المخطوطات العربية، صورة ص١٠٤.

(٢) مجلة الزهراء (شاهد قبر الشيخ عياد الطنطاوي) ذو القعدة ١٣٤٧ هـ، مجلد ٥، ص٣٦٠.

(٣) انظر، مقالة محمد أمين حسونة: الشيخ عياد الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٥٤٩، القاهرة، ٧ محرم سنة ١٣٦٣ هـ، الموافق ٣ يناير ١٩٤٤م، مجلد ١٢، ص٣٩.

إلى جهود أحمد تيمور باشا وكراجكوفسكي[1]، بهذا الصدد، وطلب إلى الكاتب أن يعاود النظر لها. وعاود اهتمام الباحثين بالشيخ عياد على صفحات مجلة الكتاب في عدديها يوليو ١٩٤٦ ويونيه ١٩٤٩، بمقالات اشترك فيها محمد عبد الغني حسن ون. ج بولوتسكي. ولكنها لا تخرج عما نشر عنه قبل ذلك.

لقد كانت بحق كتابات أحمد تيمور وكراجكوفسكي أفضل ما كتب عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي بسبب دقتها وشموليتها واستقصائها لسيرة حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، لا سيما خلال إقامته في روسيا، وأكمل عقد سيرة حياة الشيخ محمد عياد، الأديب حسين علي محفوظ بكتابه الذي عنونه بالشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوروبا[2].

وأما ما كتبه محمد عبد الغني حسن، سواء تحت عنوان «عربي في بلاد الصقالبة، الشيخ محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠ ـ ١٨٦١م»، أو نفس المقال الذي نشره بعنوان آخر دون إضافة أو حذف «أعلام النهضة الحديثة»، فلا يعدو التقاطات من مقالات تيمور وكراجكوفسكي، وعلى نفس المنحى يقال عن المقالة التي كتبها محمد عبد القادر بافقيه من اليمن، بعنوان «من قصص الاستشراق والتغريب، الطنطاوي الذي مات في بترسبرج»، فقد اقتبسها بقضها وقضيضها من كتاب كراجكوفسكي الموسوم بـ «مع المخطوطات العربية»[3] بجرأة اقتباسية عجيبة.

ومن جانبنا فمن خلال اطلاعنا على ما ورد في الدوريات العربية والأجنبية عن سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ودراستنا لكتابه تحفة الأذكياء، فإننا نقدم

---

(١) انظر، الرسالة، العدد ٥٥٤، ١٩ صفر ١٣٦٣ هـ/ ١٤ فبراير ١٩٤٤م، المجلد ٤، ص٥٦٢ ـ ٥٦٤.

(٢) مستل من مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع ١٩٦٤م، مطبعة الحاني.

(٣) انظر، مجلة المنتدى، السنة السادسة، العدد ٦٧، جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ هـ، فبراير ١٩٨٩م.

ترجمة لحياته نراها قريبة إلى الصواب، وتلقي أضواء على سيرة هذا الرائد. تروي سيرته بأن اسمه:

هو محمد عياد بن سعد بن سليمان عياد الشافعي المرحومي الطنطاوي، ولد في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا، سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م، وينسب إلى قرية مرحوم من أعمال مديرية غربية مصر والتي كان أبوه منها، حيث عمل والده سعد ببيع القماش والصابون والبن. وفي بلدته مرحوم تلقى الطفل محمد عياد علومه الأولية، حيث حفظ القرآن وأعاده، ومن ثم قصد طنطا لاكمال دراسته[1]، وهي المدينة التي كانت حافلة بالعلماء والفقهاء والقراء، فدرس هناك على الشيخ محمد الكومي، شرح ابن قاسم في الفقه سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، وعلى الشيخ محمد أبي النجا، الشرح السالف الذكر، وشرح الخطيب سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م، والشيخ مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي، شيخ الجامع الأحمدي بطنطا سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م فروى عنه حديث الأولية وكتب الستة[2].

---

(١) الزهراء، م٧/ ٤٢٠.

(٢) أجازه الشيخ مصطفى القناوي بالرواية ونص الإجازة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد؛

فقد أجزت العمدة الفاضل، ولدنا العزيز الشيخ محمد عياد بن المرحوم الحاج سعد عياد المرحومي بحديث الأولية وهو قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَن في السماء». كما أجازني به شيخي وأستاذي فخر السادة الأشراف، ونخبة آل عبد مناف، الحسيب النسيب السيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني اليمني. كما أجازه بذلك مشايخه.

وأجزته كذلك بما أجازني به شيخي وأستاذي الشيخ محمد عبادة الغنيمي بلدا البيومي طريقة، كما يرويه عن مشايخه: أجلهم سيدي عمر التطاوني المغربي الشاذلي، والمبادرة إلى طاعة الله تعالى فإنها السبب الأقوى، ولا ينسانا من دعواته. =

ويبـدو أن محمد عياد قد ورد القاهرة بعد سنة «١٢٣٨هـ/١٨٢٢م واستمر دارسـاً ومـدرساً حتى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، درس خلال ذلك على جملة من شيوخ الأزهر المتنورين أمثال الشيخ حسن العطار، ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م، شيخ الجـامـع الأزهـر، منـذ سنـة ١٢٤٦هـ/١٨٣٦م، صاحب التصانيف في العلوم العقلية، ورائد منهج التدريس بالنزعة الأدبية[١]، حيث قرأ عليه تفسير البيضاوي، والشيخ إبـراهيم بن محمـد بن أحمـد البيجـوري، شيخ الجـامـع الأزهـر، ت ١٢٧٧هـ/١٨٦٩ م، الـذي غشي مجلسـة ولازمه سنين قرأ عليه خلالها أصول الكتب ونظر في علوم النحو والفقه والبلاغة والأصول والمنطق والكلام، وقد كان تأثير البيجوري على تلميذه محمد عياد كبيراً، فسار يختار لحلقته موضوعاً أدبياً مثل مقامات الحريري والمعلقات[٢]، وكذا الشيخ برهان الدين، أبو المعالي، إبراهيم السقا، ت ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، خطيب الأزهر المفوه وشيخه، وصاحب التصانيف العديدة[٣].

لقـد كان تأثير هؤلاء الشيوخ بالغـاً في محمـد عياد الطنطاوي، فاتجه نحو

= وأجزته أيضاً بما رويته عن الأستاذ الأعظم سيدي محمد الحفني الـغلوتي الشاذلي بقراءة الكتب الستة المشهورة في علم الحديث: البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجـه والموطأ للإمام مالك بن أنس، رضوان الله عليهم أجمعين، ونفعنا بهم وحشرنا في زمرتهم آمين، وأوصيته أن لا ينسانا من صالح دعواته، في خلواته وجلواته.

حصل ذلك عشرين المحرم الحرام سنة ١٢٤٤

الفقير مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي

خادم أهل العلم بالمقام الأحمدي

انظر، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، ص٤٢٠.

(١) انظر، تاريخ الأزهر، ١٣٨، الخفاجي: الأزهر في ألف عام، ١/٢٤٧ـ٢٤٨.

(٢) محمد عبد الغني حسن: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ٣٢.

(٣) خليل مردم: أعيان القرن الثالث عشر، ١٦٠، خطط مبارك ٢/٩، الأعلام، ١/٧٠.

الدراسات الأدبية، يشرح المقامات ويفسر غريبها، فاتهم بترويج البدع إذا انصرف إلى الشعر والأدب بدلاً من الانصراف إلى مباحث الفقه والحديث[1]، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بطاعون سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م، الذي عاناه مدة عشرة أيام بلا نوم، وغاب عنه الأحساس والادراك حتى سلمه الله وانفتحت البثور، ثم تعافى بعد اسبوعين، وفي ذلك يقول حين اشيع خبر موته شعراً:

تمنى أناس أن أموت وإن مت ... فتلك طريق لست فيها بأوحد
وإن أظهروا موتي فليس بمنكر ... إذا أظهر الشيطان موت محمد[2]

ويفهم من خلال مراسلات محمد عياد الطنطاوي أنه حظي بمجموعة طيبة من الصداقة والصلة، ربطت بينه وبين الشيخ محمد الأشموني الذي تتلمذ وإياه في الأزهر، وصداقة جمعته ومحمد قطة العدوي، المصحح الأول بمطبعة بولاق الأميرية[3] وإبراهيم الدسوقي وعبد السلام الحلبي الترمانيني وعبد الرحمن الصفتي، وعبد الهادي نجا الأبياري وسرور الدمنهوري، ورفاعة بك الطهطاوي ويوسف الصيداوي المتولي على بيته أثناء غيبته وغيرهم، كانت رسائله تحمل أخبار رحلته العلمية واتصاله بدوائر الاستشراق الروسية.

ظلت قصة اتصال محمد عياد الطنطاوي بدوائر الاستشراق الروسية، موضع بحث خلال ثلاثة عقود من الزمن، إذ اعتقد البعض بأن طنطاوي قد اشتغل مدرساً للعربية بمدرسة الارسالية البروتستانتية في القاهرة، سنة ١٨٣٥م، وانه من خلال عمله هذا تعرف على برون الفرنسي Perron ، استاذ الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية، ومن ثم عرف فراهن الألماني R.Fraehn ، والذي كان والده مدرساً للشرقيات في كلية قازان الروسية وكذا جستاف فيل G. Weil ، مدرس الشرقيات في

(١) الزركلي: الأعلام، ١/٥٤.
(٢) انظر، تحفة الأذكياء، ١٦.
(٣) الزهراء، ٧/٤٢٠.

كلية هيدلبـرج، وإنـه من خلال اشتهار الطنطاوي في دوائر الاستشراق، بسبب علاقاته مع الوافدين على مصر من المستشرقين، وقع عليه الاختيار للتدريس في بتـر بورغ، حيث كلف بكتي «المندوب القنصلي Agent Consul الشيخ الطنطاوي للسفر إلى بتر بورغ للتدريس هناك[٣].

ومع تقديرنا لجهود هؤلاء البحاثة الأوائل، فإن كتاب «تحفة الأذكياء» يوضح حقيقـة اتصـاله بالدوائر الاستشراقية الروسية إذ تعود البدايات الأولى إلى دراسة المسيوفرنيل كتباً عربية وأدبية وتاريخية على الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وكذا الـروسي موخين والـذي كان يعمـل مترجماً للقنصلية الروسية في استانبول سنة ١٨٤٠م، والـذي كان قد قرأ على الشيخ طنـطاوي شيئـاً من المعلقـات وأخبار شعرائها[٢]، ومن خلال ذلك نُسجت وشائج العلاقة مع فرنيل، حيث قام الأخير بتقديم محمد عياد طنطاوي إلى القنصل الجنرال الكونت ميدن، أحد أعيان دولة روسيا وكبـرائهـا، والـذي عمـل فيمـا بعـد سفيراً لروسيا في بلاد فارس، وبلاد أمريكا[٣]، ويبدو أن مدرسة الألسن الشرقية في بتر بورغ كانت بحاجة لمعلم للغة العربية، فكلف وزير الغرباء نسل روض الكونت ميدن بالتفتيش على معلم للسان العـربي، فوقع الاختيار على الشيخ محمد عياد الطنطاوي حيث طلب الكونت ميدن من والي مصر، محمد علي باشا، إعارة كلية الألسن الشرقية، الشيخ محمد عياد الطنطاوي لتدريس العربية، ولاقى هذا الطلب القبول من محمد علي باشا، فاستدعي إلى ديوانه الطنطاوي ورخص له بالسفر، وطلب إليه الجد بتعلم اللسان الروسي، لأنه ـ أي محمد علي ـ مشغول بجلب الألسن الغريبة إلى مصر، ليعرف مدى التقـدم العلمي والاجتمـاعي الذي وصلت إليه بلاد الروس، بل وكتب له مرسوماً، مهره بخاتمه، ووعده بالاكرام والحظوة إن فعل[٤].

---

(١) أعلام النهضة، ٢٧٦ ـ ٢٧٧، شيخو: الآداب العربية في القرن ١٩، ١/٨٥.

(٢) تحفة الأذكياء، ٩، ٢٣.

(٣) تحفة الأذكياء، ٨.

(٤) تحفة الأذكياء، ٨.

فكانت وفادة الشيخ الطنطاوي في أهدافها في الصف الثاني بعد بعثة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا ولندن، والتي ضمنها كتابه »تخليص الابريز إلى تلخيص باريز». فإذا كان رفاعه الطهطاوي رائد عصر التنوير من خلال بعثته في أوروبا الغربية، فإن محمد عياد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته في أوروبا الشرقية.

وصل محمد عياد الطنطاوي إلى مركز الروسيا في ٢٦ أيار ١٨٤٠م[1]، وانضم إلى المدرسة الشرقية، حيث ألقى أول محاضرة بعد سبعة وثلاثين يوماً من حضوره، وفي صيف عام ١٨٤٤ سافر بإجازة إلى مصر، ومن ثم عاد خريف ذلك العام إلى بتربورغ، ويبدو أنه في رحلته هذه حمل معه زوجته «علوية»، وابنه أحمد، ثم التمسته الجامعة أن يدرس فيها، فعمل مدرساً فيها من بداية ١٨٤٧م حتى ٨ تشرين الأول اكتوبر ١٨٤٧م. وانتقل للتدريس في الكلية الشرقية خلال السنوات ١٨٥٠-١٨٥٤م حيث درس القواعد والأدب والخط والتاريخ والعروض ووضع العديد من المؤلفات التعليمية لتلاميذه.

كان الشيخ محمد عياد الطنطاوي يقضي إجازته متنقلاً بين البلدان الروسية، يطوف المتنزهات والغابات ويحضر الاحتفالات الرسمية والشعبية، وقد حظي بعناية متميزة في الدولة الروسية، حيث عين مستشاراً في الدولة الروسية، وقلده القيصر نشان (وسام) ستانيسلان ووسام حنه، بسبب امتياز التلاميذ في البحث، وفي ذلك يقول طنطاوي:

إنـي رأيت عجـيبـاً
في بتـربـورغ وإنـه

---

(١) التواريخ هنا تحسب على أساس التاريخ المعمول به في روسيا وينقص ١٢ يوماً عن الميلادي، وفق ما ذكره محمد عياد في مقدمة كتاب تحفة الأذكياء.

شيخ من المسلمين
يضم في الصدور حنه

كما قلده القيصر خاتماً مرصعاً بالألماس الغالي، في البحث الثالث. وفي روسيا تتلمذ عليه عدد من المستشرقين منهم، G.A. Wallin الفنلندي الذي ساح في الجزيرة العربية ومصر وسوريا لسنين تحت اسم عبد الولي، وله مع الطنطاوي مراسلات، جمعها وطبعها مترجمة إلى الآسوجية، وهي محفوظة في جامعة هلسنكي Helsinki والتي أصبحت فيما بعد تعرف بـ Helsingfors عاصمة فنلندا، والمستشرق انطوني موخلينسكي. الذي قرأ على طنطاوي العديد من الكتب العربية واللطائف الأدبية، ومنها ديوان عبد الرحمن الصفتي، وكذا المستشرق نافروتسكي وكروكاس.

ويتضح من الوثائق الرسمية التي اطلع عليها كراجكوفسكي، أنه في سبتمبر من سنة ١٨٥٥م، عانى الشيخ الطنطاوي من شلل أصاب أطرافه السفلية، ولما كان كراجكوفسكي بصدد انجاز كتابه عن الشيخ طنطاوي، حمل إليه أحد العاملين في مكتبة الكلية الشرقية كومة من الأوراق، اتضح بعد فحصها أنها تخص الشيخ الطنطاوي، كانت كلها مملوءة بخطوط كتلك التي يحب أن يرسمها الأطفال، بمساحات بيضاء خالية وبخطوط مكسرة غير واضحة، وحين أعاد كراجكوفسكي ترتيبها بدت أمامه الحقيقة المرعبة، إنها تتضمن مجموعة من الأمثال باللهجة العامية المصرية ونماذج من التحايا والأغاني العامية ومواد مختلفة من البلاغة والنحو والألفاظ العربية مما يتصل بالشيخ الطنطاوي، وبدأ واضحاً أنها كتبت بعد أن أخذ الشلل يسري إلى يديه، وبدا صراع الشيخ مع المرض يتمثل في عدم قدرته على السيطرة على القلم، فلم تطاوعه لا الريشة ولا القلم، فبدت الثقوب في الأوراق، وكأنما الشيخ يجاهد ليكتب حتى إذا ما هاجمته الرعشة اللاإرادية، انقبضت اليد فيجري القلم دون سيطرة، ومع اشتداد المرض زادت معاناة الشيخ في الكتابة فالحروف تلتحم، وتتمدد وتتطاول حتى قربت من كتابة أعمى غمس

عصاه بدهان ليكتب به، كانت يده هامدة ولكنه كان يحاول وبإصرار أن ينهض بعلمه ويدون فكره، بعزيمة لا تعرف التقهقر أو الاستسلام[1]، حتى إذا كان يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ١٢٧٨هـ، انتقل الطنطاوي إلى رحمة ربه/ ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١م، ودفن في مقبرة فولكوفو[2] الإسلامية، وكتب على شاهد القبر. «هذا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوي كان مدرس العربية في المدرسة الكبيرة الامبراطورية ببطرسبورغ المحروسة وتوفي في شهر جمادي الثاني سنة ١٢٧٨[3] من الهجرة عن خمسين سنة».

مؤلفاته:

لا يزال العديد من مؤلفات الشيخ الطنطاوي محفوظاً، تحتفظ مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة ليننغراد بالعديد منها، وفي خزانة معهد الأمم الأسيوية، ومعظمها يتصل بالدراسات اللغوية والدينية التي كان يستعين بها على تدريس مادة اللغة العربية وآدابها في كلية الألسن ببتربورغ، ومنها.

- أحس النخب في معرفة لسان العرب[4].

وهو ألفاظ وجمل وأمثال وحكايات وملحقات ورقاع وصكوك ومواويل وشعر ورسائل تُبودلت بينه وبين أصدقائه في مصر، والرسائل موجهة إلى:

- محمد خليل صاحب زاده الفاروقي، نقيب الأشراف بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٢١٢هـ.

---

(١) كراجكوفسكي: مع المخطوطات العربية، ٢٤١-٢٤٢.

(٢) محفوظ: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ٨٣.

(٣) حسب الوثائق الرسمية المحفوظة في خزانة الكلية الشرقية كانت الوفاة في ٢٩ أكتوبر ١٨٦١م، ويوافق ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٨ هـ.

(٤) اعتمدنا فيها على ما ورد في كتاب، محفوظ: سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٠-٢٤).

ـ محمد قطة العدوي تاريخ ٤ محرم ١٢٥٩هـ.

ـ إبراهيم الدسوقي، غرة شهر رمضان ١٢٥٧هـ.

ـ يوسف الصيداوي، المشرف على بيته أثناء غيابه ١٢ جمادى الأولى ١٢٣٧هـ.

ـ عبد السلام الحلبي الترمانيني ذي القعدة سنة ١٢٥٧هـ. والكتاب طبع في ١٨٤٧، /١٢٦٤.

ـ اصلاح تحريف كتاب الإيضاح في شرح سقط الزند، لابن الخطيب التبريزي، كتبه إبان احتجازه في كرنتينة استانبول، يوم السبت ٢٢ صفر سنة ١٢٥٦هـ. منه نسخة في خزانة الكلية الشرقية، بجامعة لينغراد، رقم ٨٣٧.

ـ الأمثال، مخطوط.

ـ الانتخابات.

وهو كتاب انتخبه من مجموعة كتب أدبية تراثية، مثل العقد الفريد والأغاني والخطط للمقريزي، وتعليق من شرح لامية العجم للصفدي، وتكملات في الأعياد والمواسم والموالد، ونقول من جريدة الوقائع المصرية، وعبارات مستعملة في الحياة وجواباتها.

ـ بغية المريد على رسالة التوحيد (حاشية على رسالة الباجوري).

ـ مسودات لتاريخ العرب، بخطه في جامعة بتروغراد رقم ٨٣٨.

ـ ترتيب تلاقي الأرب في مراقي الأدب على حروف المعجم، وهو ديوان صديقه عبد الرحمن الصفتي، خزانة الكلية الشرقية، رقم ٨٩٢.

ـ ترجمة الباب الأول من كلستان لسعدى الشيرازي، بخطه في جامعة بتروغراد رقم ٨٣٨.

ـ ترجمة الطنطاوي بخطه.

وهي ورقة أودعها كتاب «التعليق على الكافي في العروض» بين ورقة ٦٦ب ـ ٦٧أ.

ـ ترجمة مختصر تاريخ روسيا، تأليف استريالوف، ورد ذكره في تحفة الأذكياء، ص ٥٩.

ـ تصحيح أغلاط نسخة يتيمة الدهر للثعالبي، نسخة خزائنية برسم المولى محمد خليل بن علي الحسيني الحنفي المعروف بالمرادي، المفتي بدمشق، سنة ١١٩٥هـ، بخط ياسين بن أحمد بن الشمعة، خزانة معهد الأمم الأسيوية، لينغراد، رقم D 162 [1]

ـ تعاليق حاشية المقولات للشيخ حسن العطار.
ـ تعاليق على حاشية الأمير على شرح الملوى على السمرقندية في البيان.
ـ تعاليق على حاشية البيجوري على السمرقندية.
ـ تعاليق على الكافي في علمي العروض والقوافي.
ـ تقييدات على (شرح الأزهرية في النحو للشيخ خالد الأزهري)، مع التعرض لحاشية الشيخ حسن العطار. (نسخة خزانة الكلية الشرقية ٨٢٧).

ـ تواريخ الخلفاء والسلاطين والملوك وسلاطين الديار المصرية من زمان النبي ﷺ، إلى عصر عبد المجيد خان، سنة ١٢٥٠، خزانة الكلية الشرقية رقم ٨٣٣.

ـ حاشية أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري[2]
ـ حاشية التحفة السنية والعقائد السنية (شرح منظومة السيد محمد بليمة لبرهان الدين، أبي المعالي، إبراهيم السقا.

---

(١) كان الفراغ منه في ١٩ رمضان ١٢٦٢ هـ. انظر، محفوظ: سيرة الشيخ محمد الطنطاوي، ١٧.

(٢) قابله وحشاه في ضحوة الأربعاء، ٢٥ ربيع ١٢٥١ هـ، انظر، محفوظ: سيرة الشيخ ١٧.

obeikandl.com

- حاشية الزنجاني في الصرف.
- حاشية شرح الأزهرية في النحو.
- حاشية الكافي في علمي العروض والقوافي.
- حال الأعياد والمواسم في مصر.
- الحكايات العامية المصرية، وتضم ٣١ حكاية، بخطه في خزانة الكلية الشرقية، رقم ٧٤٥.
- ختم على شرح القطر لابن هشام.
- ختم على متن الجوهرة في العقائد للقآني.
- رسائل ومنها رسائل الطنطاوي إلى تلميذه المستشرق الفنلدني G.A. Wallin.
- شرح منظومة الشيخ السلموني في العقائد.
- شرح نظم السمرقندية.
- غنية المريد في علم التوحيد.
- قاموس عربي فرنسي، طبع في قازان سنة ١٨٤٩.
- قواعد اللغة العربية باللغة الروسية.
- لذيذ الطرب في نظم بحور العرب. جعل آخر نظمه لكل بحر من بحور العروض آية من القرآن.
- ما يقال في الحياة اليومية من التعابير وأجوبتها.
- مجموعة شعره، في خزانة الكلية الشرقية رقم ١٢٣٥.
- مشتهى الألباب على منتهى الآراب، يقع في ٨٦ ورقة، خزانة الكلية الشرقية رقم ٨٢٠[1].
- معجم تترى عربي.
- منتهى الآراب في الجبر والميراث والحساب، منظومة في بحر الرجز، منه نسخة

(١) أكمل تسويده يوم عاشوراء سنة ١٢٤٥ هـ، وفرغ من تبييضه ٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ.

obeikandl.com

في جامعة بتروغراد، رقم ٨٢٠، كتبت سنة ١٢٤٥هـ.

- الموالات.
- نظم تصريف الزنجاني.
- نظم السمرقندية في البيان.
- نقد ترجمة بعض التعابير العربية في كتاب المستشرق سلفتر دي ساسي.
- نقد طبعة رحلة ابن جبير.
- نقد كتاب «الأمم الإسلامية» تأليف كارسين دي ساسي.
- هامش كتاب «الحجة في سرقات ابن حجة لشمس الدين، محمد بن حسن النواجي».

ويلاحظ بأن معظم مؤلفاته كانت كتباً تعليمية قد وضعت للطلبة لدراستها أو الاستفادة منها.

أما أهم كتبه، فكان الكتاب الذي ننشره، وقد جاء على صفحة عنوانه:

«هذا كتاب
تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد
المصري الطنطاوي
غفر الله ذنوبه
وستر عيوبه

والمخطوط محفوظ في مكتبة جامعة استانبول تحت ٧٦٦ عربجة (عربي).
وكتب المخطوط بخط نسخ عادي وبالمداد الأسود

أوله: حمداً لمن سير سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقيّضَ، له أعواناً يعضدونه، وأنصاراً يحمونه وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل

بلده ووده الغرباء. . . الخ.

آخـره: والله أسأل وبنبيه أتوسل، أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، فما قصدي إلا التبصير وما مرامي إلا التذكير، إن أُرد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

اسم الناسخ: مصنفه الفقير محمد عياد الطنطاوي المصري.
عدد الأوراق: ١٩٤ ق.
عدد الأسطر: ٢٣ س.
تاريخ النسخ: أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ/ أوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠م.
مكان التصنيف: بتربورغ.

روى كراجكوفسكي في كتابه مع المخطوطات العربية خبر عثوره سنة ١٩٢٤م على نسخة من مخطوط «تحفة الأذكياء» ذلك أن أحد مستشرقي الألمان أشار في فهارسه التي صنعها لمكتبات استانبول «وجود نسخة من تحفة الأذكياء في خزانة مسجد رضا باشا والعنوان يقول «تحفة أولي الألباب في أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوي» كتبه بخطه سنة ١٨٥٠م/١٢٦٦هـ وأهداه إلى السلطان عبـد المجيد»، وقـد تسلم كراجكـوفسكي نسخـة منه سنة ١٩٢٧م، ذهب بعد فحصها إلى أن المخطوط ليس بخط الشيخ الطنطاوي وإنما بخط أحدهم، ولما كنا نميل إلى هذا الرأي، فإن الإجازة رقم ٣١٧ مصطلح الحديث المحفوظة في دار الكتب المصرية تدعمنا فيما ذهبنا إليه، فالإجازة بخط الشيخ الطنطاوي».

ثم حمل إليه أحد تلاميذه كومة أوراق اشتراها من بائع كتب قديمة، عليها عبارة «أ. ن»، عرف كراجكوفسكي لدى تصفحها بأنها مسودة كتاب تحفة الأذكياء كتبها طنطاوي بخطه وعليها تصحيحات وتعديلات، وأما الأحرف أ. ن، فترمز «لا يريني نوفل الطرابلسي» الذي خلف طنطاوي في التدريس بالقسم التعليمي للغات

الشرقية التابع لوزارة الخارجية، أما كيف وصل الكتاب إلى بائع الكتب القديمة؟ فتلك مسألة معروفة فإن ورثة إيريني نوفل بعثروا مكتبته بين أيدي البائعين حتى وصلت المسودة إلى المشتري الذي التقطها وهو تلميذ كراجكوفسكي النبيه[1]..

ويبدو أن أخبار اكتشافات كراجكوفسكي لم تنتشر في الوطن العربي أو كانت محدودة الانتشار، مما حدا بالاستاذ محمد عبد الغني حسن أن يتساءل في إعلام النهضة الحديثة[2] إن كان الشيخ الطنطاوي قد ترك لنا كتاباً في بترسبورغ وآثارها، وانتهى محمد عبد الغني حسن إلى أن ما هو معروف أن الشيخ الطنطاوي قد ترك لنا رسالة إلى زميله وصديقه رفاعة الطهطاوي.

وفي تلك الرسالة يكتب طنطاوي إلى زميلة الطهطاوي فيقول:

«أنا مشغوف بكيفية معيشة الأوّروبيين وانبساطهم وحسن ادارتهم وترتيبهم خصوصاً ريفهم، وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار إلى ذلك مما شاهدتهم قبلي بمدة في باريز إذ بتر بورغ لا تنقص عن باريز في ذلك، بل تفضلها في أشياء كاتساع الطرق، وأما من قبل البرد فلم يضرني جداً، إنما ألزمني ربط منديل في العنق ولبس فروة إذا خرجت وأما في البيت المدافىء المتينة معده لإدفاء الأوض، وطالما أنشدت عند جلوسي قرب النار؛

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه في الشتاء فليصطل[3]

وفي رسالة بعثها، ن.ح. بولوتسكي، مدرس اللغة القبطية في معهد العلوم الشرقية بالجامعة العبرية بالقدس، ونشرت في مجلة الكتاب، عدد يوليو ١٩٤٦، ص، ٥١٠، لفت نظر محمد عبد الغني حسن إلى أن الشيخ الطنطاوي قد ترك

(١) كراجكوفسكي: مع المخطوطات العربية، ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

(٢) محمد عبد الغني حسن: أعلام النهضة الحديثة، ص٢٨٠.

(٣) أحمد تيمور: محمد عياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، ٤/ ٣٩٠.

أثراً هو «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا» تحفظ نسخة منه في دار الكتب لجامعة استانبول، ونسخة أخرى منه تصان في مكتبة الخزانة الشرقية في لينينغراد، ونوه بجهود كراجكوفسكي بهذا الصدد، والذي تحدث عن اكتشافه لهذا الأثر.

ويخيل إلينا أن النسخة كانت محفوظة فعلاً في خزانة جامع مسجد رضا باستانبول، وبعد ثورة مصطفى كمال أتاتورك، نقلت محفوظات المساجد، ومنها محفوظات خزانة مسجد رضا، ووزع ما سلم منها على المكتبات العامة في جميع أنحاء الجمهورية التركية، ويبدو أنه من حسن الطالع استقرار النسخة أخيراً في مكتبة جامعة استانبول تحت الرقم الذي أشرت إليه سابقاً.

ولما كان لا علم للباحث بأن رحلة «تحفة الأذكياء» قد نشرت بالعربية أو أن أحداً قد اطلع عليها خلا كراجكوفسكي الذي استعان بها لوضع كتاب في سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ثم إن الكتب الروسية الأربعة التي اتصلت بالمخطوطات العربية المحفوظة في جميع أنحاء الاتحاد السوفياتي قد خلت من ذكر كتاب «تحفة الأذكياء».

فإن الباحث يميل إلى أن النسخة الروسية إما لا تزال محفوظة في خزانة الشيخ محمد عياد الطنطاوي الكائنة في مكتبة معهد الشعوب الآسيوية ـ الافريقية بلينينغراد والتي تلفت بعض محتوياتها في حادث وقع سنة ١٩٨٩م، أو أنها اختفت أصلاً بعد وفاة مالكها العلامة كراجكوفسكي، ولعل الأيام تتيح للباحث فرصة النظر في خزانة كتب الشيخ الطنطاوي، وقد حاول الباحث وما زال من أجل الحصول عليها، كما فعل الاستاذ حسين على محفوظ، والذي عمل مدرساً للعربية في نفس المعهد الذي درس فيه الشيخ الطنطاوي من سنة ربيع ١٩٦١ حتى أوائل صيف ١٩٦٣م، والذي حين أشار إلى تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، أحال القارىء إلى مجموعة كراجكوفسكي المجلد ٥ص ٢٨٩-٢٩٠، وأضاف، تراجع تعريف كراجكوفسكي بالكتاب وصفته في مجموعته «المجلد ١ص ١٦٦-١٧٤، بل إن

حسين محفوظ حين جمع بعضاً من قصائد الطنطاوي والتي وردت أصلاً في كتاب تحفة الأذكياء، التقطها من أوراق أخرى غير التحفة، مثل: تتبعات في التاريخ والجغرافيا واللغة والأدب، أو الإيضاح، أو الانتخابات، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن الاستاذ حسين علي محفوظ لم يطلع على كتاب تحفة الأذكياء. ومن هنا تأتي أهمية كتاب تحفة الأذكياء، والذي ينشر لأول مرة بنصه العربي.

ملاحظات على كتاب تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا:

تحتفظ مكتبة جامعة استانبول بنسخة وحيدة من كتاب «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا «مسجلة تحت رقم ٧٦٦ عربجة، نقلت إليها من مكتبة مسجد رضا وجاءت النسخة في ١٩٤ صفحة، مسطرتها ٢٣ سطراً، وعلى صفحة العنوان سجل:

هذا كتاب
تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد
المصري الطنطاوي
غفر الله ذنوبه
وستر عيوبه

وجاء بآخره دعوة أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء بعين الانصاف وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، ثم إثبات تاريخ الإنتهاء منه، حيث ذكر:

«وقد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦ من الهجرة النبوية على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠، من الميلاد، والله ولي السداد على يد مصنفه الفقير محمد عياد الطنطاوي المصري ببتربورغ».

وقع كتاب تحفة الأذكياء في رواية لرحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوي التي بدأت في ٢٤ محرم ١٢٥٦هـ/٢٦ مارس ١٨٤٠م من القاهرة حتى وصوله إلى بتربورغ في ٣٠ حزيران ١٨٤٠م، ١١ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ، وغطت ٥٢ صفحة من الكتاب، ثم عقد ثلاثة أبواب اتصل الأولى منها، بمنشأ الروس وولاية نوفغورد Novgord ، والباب الثاني تعلق بتاريخ بتربورغ الطبوغرافي والاثنوغرافي والطبيعي والبشري، فكان دراسة تاريخية، جغرافية جيولوجية، وقد جعل في الباب الثاني ثلاثة فصول ركزت في معظم مادتها على حياة بطرس الأكبر وانجازاته وإصلاحاته، ودوره في نهوض روسيا وتقدمها في المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، ثم عرضاً للأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية في بتربورغ خاصة وروسيا عامة في عهد خلفاء بطرس الأكبر.

وأما الباب الثالث فقد أرخ فيه لعادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم وعادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة والأعياد والتنظيمات الاجتماعية ودور المرأة في ذلك المجتمع وتقدم الروس في العلوم والفنون والسكن وأنماط المعيشة ثم ختم الباب بفصل عاشر تناول فيه اللغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها وإليها.

وقد حرص الشيخ محمد عياد الطنطاوي في بداية كتابه على توضيح البواعث التي دعته لتصنيف كتابه، فقد سأله جماعة من الأصدقاء والمعارف أن يسطر في سفره هذا كتاباً، يودع فيه ما يقف عليه من حال البلاد التي يزورها من عجائب وغرائب، مع ما صادف ذلك عنده من ميل أدبي، فسجل في كتابه، بدائع البلاد التي رحل إليها وغرائب عادات أهلها، مع شذرات علمية ونكات أدبية وطرف استحسانية اختراعية ليضفي على الكتاب لمسة ظرف طرداً للملل وجذباً للقارىء فقد أورد العديد من النكات اللغوية واللطائف والمواقف الغرامية.

وكان خط سير الرحلة من القاهرة إلى جنينة شبرى ومروراً بزاوية رزين

فالاسكندرية حيث انتقل إلى باخرة نمساوية وصف درجاتها ونظام الإقامة فيها والخدمات التي يقدمها العاملون فيها ثم إلى جزيرة جريد (كريت) العثمانية حيث تحدث عن مبانيها ووصف بناياتها وعدد سكانها ومنها إلى مرسي كنى وجزيرة سير ثم إلى أزمير وقد اطنب في الحديث عنها، فبحر مرمرة حتى استانبول التي أقام بها أياماً، ووصف ما شاهده فيها بعين فاحصة ناقدة، من قباب ومؤسسات ومساجد وخاصة أيا صوفياً وغلطة ومصانع الورق والمتنزهات فيها ثم إقامته قبل ذلك في الاسكدار ورحيله إلى أوديسا والإجراءات الصحية بسبب الطواعين التي كانت متفشية في بلدان العرب وخاصة مصر، ومن ثم ركب عربة تجرها الخيول بعد تزويده بتذكرة مرور ومرافقه مترجم روسي خاص، وقد وصف الطريق إلى بتربورغ فمر بنهر بوخ وكييف والغربول وموهلوف وبودن وسكندرية الأخرى وفينيسك وتسارسكيا سلو حتى وصل إلى بتربورغ، وخلال عرضه لما شاهده كان يحرص على وصف أدق الأشياء ويقارنها بحال مصر، فالخبز نظيف والماء عذب والمتنزهات تغطيها الأشجار والورود والرياحين تشرح الصدور وتنسي الهموم، الناس فرحون، نوبات الموسيقى تعزف والراقصون يبهرون الأنظار والأطفال يمرحون ويلعبون في الحدائق وقد اعدت لهم وسائل الكتب والتسلية والمدارس كثيرة ومنتشرة في البلاد الروسية وخاصة مدارس البنات، والمعامل كثيرة لصناعة الطوب والقطران، والمرستانات والتياترات، حتى إذا ما استقر به الحال في البلاد الروسية لمدة عشر سنوات، وباشر عمله في التدريس، ومن خلال دراساته لتاريخ تلك البلاد وما شاهده عياناً وما خبره تجربة سجل من خلاله أحوال البلاد الروسية.

وجاءت في ثلاثة أبواب، احتوى الباب الأول على تاريخ روسيا القديم، وتاريخ الصقالبة السكان الأول لتلك البلاد، حيث وصف معتقداتهم الوثنية وطرائق عيشهم وانتجاعهم من مكان إلى آخر وعشقهم للحروب وبراعتهم في صنع السلاح، القسي والحراب والسهام والسيوف، وأورد الرواية الرومانية التي تفيد بأن أصل السكان سكيفي وصرماطي ومن ثم قام على بقاياهم الصقلب، ومن ثم اتصلت

تلك الشعوب باليونان عن طريق التجارة، كما أرخ لأصل ولاية نوفغورد Novgorod وظروف بناء المدينة وعادات وتقاليد أهلها في السياسة والاجتماع، ومن ثم انضوائها ضمن الروسيا وسجل أصل ولاية كييف Kiev ، ورواية بنائها من قبل أخوة ثلاثة، أطلق إسم الأكبر منهم على المدينة ثم انتقالها من الخضوع للخزر إلى الروسيا[1]، ومن ثم كيفية اختيار فلاديمير سنة ٩٨٨م أحد ملوك الروسيا للنصرانية وإعراضه عن الإسلام الذي سبق وأن عرض عليه، وذلك بسبب تحريم الإسلام للخمر، والروسي حسب رأي فلاديمير لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصر، ولكن الشيخ محمد عياد يورد رأياً آخر يتصل بقرب بلاد الروس من بلاد الروم، وفي ذلك تقوية للروس إذا ما اتخذوا ديانة النصرانية، وسهولة وتمتيناً للروابط التجارية والعلمية[2].

أما الباب الثاني، فقد خصصه لدراسة أوضاع مدينة بتربورغ من الناحية الجغرافية والطبوغرافية والسكانية، ووصف طبيعة مناخها وتجلد مياهها حتى أن العربات تسير على أنهار متجلدة، وينحت فيها بيوت من الجليد، ومن ثم تقدمها في العلوم والفنون وطرز البناء واتخاذها عاصمة لبلاد الروسيا[3]، وقد قسم الباب إلى ثلاثة فصول، كان الفصل الأول منها لأصل الكلمة المكونة من مقطعين، بتر يعني بطرس بانيها وبورغ يعني بلد أو محل، فهي مدينة بطرس بانيها ومتخذها عاصمة بلاده، وقد فصل في موقعها وخطوط طولها وعرضها وارتفاعها، واتصالها بالأنهار، ووصف بناياتها وأشجارها ومياهها وحدائقها وبساتينها وقصورها ورياحها وتجلد نهر النيفا والفيضانات التي وقعت في المدينة وما سببته من كوارث وأضرار،

---

(١) Levitsky, Hi Kiev, a short guide, Mistetstvo Publishers, Kiev Progress Publishers, Moscow, 1980. PP. 25-34.

(٢) تحفة الأذكياء.

(٣) تحفة الأذكياء، ٥٩.

وتحدث بإفاضة عن طول الليل والنهار فيها ودوام هطول الأمطار، ولكن كل ذلك لم يحل دون مداومة الناس على اشغالهم واجتهادهم في إنجاز أعمالهم[1].

وقد تحدث بإفاضة عن بيت الجليد الذي بني على نهر النيفا أمام القصر في كانون الثاني ١٧٤٠م حيث استخدمت صخور مكعبة من الجليد، وعلى السقف بني ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، وأمامه أعمدة عليها تماثيل وأبوابه وشبابيكه مرخمة وملحق به حديقة أشجار عليها طيور وثمار وغيرها كثير، كل هذه من الجليد المنشور المنحوت المصقول[2]، أما الفصل الثاني فكان في أسباب اتخاذ بتر بورغ عاصمة روسيا بل وقاعدة أوروبا، وحروبها مع السويد ومجريات ووقائع تلك الحروب والخطط الروسية والتي أدت إلى النصر بفضل فطنة وكياسة وقيادة القيصر[3]، وبعد استقرار الأحوال أعمل القيصر جهده في تحسين وتوسيع وتنظيم المدينة وتنمية العلاقات التجارية الخارجية، ثم التفات بطرس لتمدين الروس بتقدمهم في العلوم، وأصدر عدة فرمانات اتصلت بالعمارة في بتربورغ والإقامة فيها وتنظيم الجمارك ورعاية بعثات التعليم إلى أوروبا للاطلاع على تمدنها وتقدمها، وتأسيسه معاهد التعليم العليا وأكديميا الملاحة، وأكديميا العلوم ومدارس التجارة والحرب وأكديميا التصوير والمكتبات وإقامة المسارح، والتياتر، والمتاحف، وخاصة للتاريخ الطبيعي، وأقام المكتبات لمطالعة الجمهور، كما اهتم القيصر بطرس باحداث ضابطه سياسية للمدينة، مثل اللوائح التنظيمية، للأبنية والشواطىء والخلجان والسرقة والنظافة والأسواق ومراقبة البيوت المتهمة والألعاب المحرمة وإلقاء القبض على المشاغبين والبطالين، ووضع لوائح تنظيمية للجمعيات وخاصة المختلطة، حيث تراعى قوانين لاجتماع الرجال والنساء، وحدد شروط وواجبات

---

(١) المصدر السابق، ٦٩.

(٢) انظر، وصف البيت في ص٧١ ـ ٧٣ من التحفة.

(٣) حول الحروب، انظر:

Marquis de Custine, Empire of the CZar cajourney through eternal Russia (1839). U.S.A. 1989. PP. 115-135.

صاحب الدعوة والأصول التي يجب أن يراعيها عند التئام الجمعية (الاجتماع) في بيته ووقته والأداب التي يجب أن تراعى[1]، ومجمله أن الفصل تناول أعمال ومنجزات وتنظيمات بطرس الأكبر ممدن روسيا، ورائد نهضتها.

أما الفصل الثالث، فقد جعله لخلفاء بطرس، فترة حكم كترينا وبطرس الثاني، والقيصرة حنا يوحا نوفنه، ثم القيصر نقولا الأول، وقد تناول ما أنجزه كل واحد منهم من عمارة ومنشآت ومباني وتنظيمات اجتماعية واقتصادية وثقافية وجهود علمية والآثار التي خلفوها وتحكي جهودهم في تقدم الدولة.

وكان الباب الثالث هو أمتع ما في كتاب تحفة الأذكياء، لأنه يزود القارىء والباحث بمعلومات اجتماعية عن عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون، ويعتقد الباحث بأن أهمية هذه الفصول تأتي من كونها هي المادة الرئيسية الثانية في التراث العربي التي تناولت بلاد الروس بعد رسالة ابن فضلان الشهيرة والتي وقعت سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١هـ. هذا إذا استثنينا الإشارات التي وردت في المراجع العربية والتي جمعها الكسندر سييل في كتابه «أخبار أمم المجوس».

من الأرمان وورنك والروس، والملتقطة من مروج الذهب للمسعودي وتاريخ الأندلس لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، ومن المقتبس والمسالك والممالك ونزهة المشتاق والاستبصار والمطرب في اشعار أهل المغرب لابن دحية والكامل في التاريخ، وكتاب بسط الأرض لابن سعيد المغربي وأثار البلاد، والبيان المغرب والمختصر في أخبار البشر ونهاية الإرب والعبر ونفح الطيب، والبلدان لليعقوبي والأعلاق النفسية لابن رسته ونظم الجواهر لسعيد بن البطريق وكتب البلدان وخاصة معجم ياقوت وغيرها من المؤلفات التي اكتفت بإيراد نصوص محدودة، بل لعلي لا أبالغ إن قلت «كان كتاب الشيخ الطنطاوي هو الأكثر

(١) تحفة الأذكياء، ١٢٥-١٢٧.

تفضيلاً في تناوله للجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الروسي من خلال مشاهداته وخبرته الطويلة فقد عاش هناك أكثر من عشرة أعوام، وسجل ملاحظاته بدقة متناهية. وقد تناولت دراساته الاجتماعية الأمور التالية:

- عوائد الروس:

ذهب طنطاوي إلى أن عادة الروس عامة الكرم والإنفاق وحسن المعاشرة، وهم يميلون إلى الفخر والكبر، وقد عزا ذلك إلى تقدم الروس في التمدن والعلوم زمن بطرس ولكنه أورد هنا مقالة للعلاء بن صاعد، صاحب طبقات الأمم، ليذكر بما كانوا عليه قبل عهد بطرس الكبير، فقال «مقتبساً من ابن صاعد» أخلاق الروس موصوفة بحسن الشكل وبياض اللون وقابلية الصنائع ولطافة الخدمة وإطاعة السيد، وقلة العبادة وقلة الصلاح وكثرة الأباق»[1]، وقرر الطنطاوي بأن الروس كانوا في القديم مشهورين بالجبن حتى استعبدهم التتار، أما الآن فانعكست القضية، والناس في المجتمع الروسي ليسوا متساويين ولا من مرتبة واحدة، بل هم مراتب، ولكل مرتبة امتيازاتها وحقوقها ولا يجوز لأحد أن يتخطى مرتبته إلا في النادر، وهذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: الأعيان، المتوارثة، حيث أن الرتبة يرثها الابن عن والده، وهؤلاء يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإن تزوج أحدهم بإمرأة دون مقامه رفع رتبتها وتسمت باسمه، غير أن هذه الرتبة تنقسم بدورها إلى درجتين:

- أعيان الأعيان: وهم من كانوا أعياناً قبل زمن بطرس الأكبر. واسماؤهم محفوظة في الكتاب الثالث.
- وأعيان: وهم من كانوا بعد زمان بطرس الأكبر. وأسماؤهم في الكتاب السادس.

---

(١) تحفة الأذكياء، ق ١٥١

والتفاضل بينهم يكون إذ يسمح للفئة الأولى بتربية بناتهم في دير أسموليني بدون إذن القيصر، في حين أن الأعيان لا بد لهم من الاستثناء من القيصر نفسه حتى يمكن لبناتهم الالتحاق بتلك المدرسة.

كما إذا انضم أحد أعيان الأعيان إلى النظام (الهيئة السياسية) عين برتبة وكيل ضابط (تحت ضابط) وبعد سنتين يترقى إلى رتبة ضابط.

المرتبة الثانية: الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم، وهم الغرباء والمستخدمون الذين أنعم عليهم القيصر بالأوسمة، حتى إذا ما أنعم عليهم القيصر بالرتبة عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم امتيازاتهم في الأرض وشراء العبيد.

المرتبة الثالثة: التجار، وهم لا يعدون من الأعيان، ولو ملكوا الملايين، حتى إذا تزوج من الأعيان حط رتبتها، ويمكن أن يرقى لرتبة الأعيان إن فعل وقدم خدمات جليلة للدولة، ولكنها نادرة، وهم لا يدخلون النظام إلا طوعاً ويكون وكيل ضابط وبعد ثلاث سنوات يترقى ولهم الخروج من النظام متى شاءوا وإذا أفلس التاجر أصبح من أولاد البلد، ولكن سمح للتاجر بعدم حلق ذقنه، إذ العادة بأن اطلاق شعر اللحية لا يكون إلا للأعيان وأعيان الأعيان والأمراء والأسرة القيصرية.

المرتبة الرابعة: أولاد البلد، وهم عامة الناس، وبإمكانهم الترقي إلى رتبة التجار، فإذا دخلوا النظام فلهم حكمهم.

المرتبة الخامسة: الفلاحون، ويبقون كما هم إلا إذا أخذوا في النظام فلهم حكمهم وإلا فلا يترقون إلى المرتبة الأولى.

المرتبة السادسة: العسكر، إلا إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الاكتاف بالقصب صار من الأعيان، وبعد خدمة خمسة عشر سنة ربما يترقى إلى وكيل ضابط (تحت ضابط)، إذا كان حسن السلوك ثم إلى مرتبة ضابط أو يمكنه التقاعد.

المرتبة السابعة: الأرقاء، ولا يجوز شراؤهم إلا من قبل الأعيان مع الأرض وليس لهم سوق يباعون فيه كما عند العرب، ويجوز اعتقاهم أو يشترون أنفسهم والرقيق حتى ولو اغتنى لا يصير عيناً إلا إذا صار عسكرياً وترقى.

وقد وضع نظام دقيق لتربية وتعليم الأعيان، فمن درس في المدرسة الامبراطورية الكبرى ووصل إلى درجة النجيب «كايذيذان» يكون من الصنف العاشر، إن أحسن البحث والإجابة، وإلا فيعطون درجة «التلميذ المجتهد»، وإن قصر فلا يستحق شيئاً أما إن درسوا في المدارس الصغيرة، فلا يستحقون رتبة إلا إذا أعطت لهم، وتكون الرابعة عشر ثم يترقون إلى رتبة الجنرالات.

وأما ابن التاجر إذا درس في المدرسة الكبيرة ووصل مرتبة النجيب ثم أعمل الجد والإجتهاد في البحث والمناقشة، أعطي رتبة مجيستر يعني «عالم» ويكون من الصنف التاسع ثم إذا اجتهد أيضاً، وعمل بحثاً ونوقش فيه ومهر وصل إلى رتبة الدكتور وتعني «فاضل»، ويكون من الصنف الثامن ثم إذا خدم وترقى وصل إلى مرتبة «السابع» ومن الممكن أن يترقى إلى رتبة الجنرال.

وأما في الملابس:

فقد وصف الطنطاوي ملابس الروس، وقارن بين أزيائهم القديمة والجديدة، ففي القديم كان لباسهم مقتصراً على قميص افرنجي، من الشيت أو البفت أو الجوخ ثم جبة طويلة محزقة، وأما القسس فلهم جيب طويلة عريضة الأكمام مثل الفرجيات عند علماء مصر، ولكن منذ عهد بطرس، غدت ملابس الروس كما ملابس الأوروبيين، ويتكون من قميص أبيض، غطى جيبه بقطعة بفت عريضة ثم الصديريات المفتوحة ثم السروال الضيق والجبة الافرنجية.

ولكل فئة من فئات المجتمع ملابسها الخاصة، فالضباط يلبسون بدلة بطوق قصب بحسب الرتبة، ومنهم من تكون بدلته كلها مقصبة.

وللمناسبات عند الروس ملابس خاصة، فبدلة الرقص هي الولبة، ولغطاء الرأس أشكاله من القبعات (البرانيط)، ومنها المسنمة الريشة أو بلا ريش، أو القبعة السوداء المدورة العالية بحواف عراض، مستطيلة أو مربعة، وتلبس النظام مثلها ـ وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة وشرابة من شعر الخيل.

وأما لباس النساء فتتكون من القمصان والألبسة والإزارات المربوطة على الوسط، إضافة إلى الفساتين المعمول لها الكرسيت[1]، أو فساتين واسعة الجيوب، ويربطن على أعناقهن مناديل، وأما فساتين الرقص فتكون بلا أكمام ونصف صدورهن تكون مكشوفة، وفي الأيدي توضع الكفوف.

والفلاحات يلبسن السرفات وتضع على رأسها قبعة عريضة.

أما عادات الزواج عند الروس: فتكاد أن تكون كما هو معروف.

فالروس لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه. فيتم الاختيار المباشر بواسطة الخاطبة، وحيث الطلاق عسر، فلا بد من معرفة الطباع، فإن وقع العشق، كانت الخطبة وتقديم خاتم الذهب، ويتم الزواج ومراسيمه بحسب أصول الديانة النصرانية، والاحتفال كما هو معروف، لكن الانتقال لا يكون إلا بعربات الملك، ولكن في اليوم الثاني يقوم العروسان بزيارة الأقارب حيث تعقد حفلات الرقص، وإذا ما اختلف مذهب العروس والعريس فإنه يتم عقد القران مرتين، مرة عند قسيس الطائفة التي تنتمي إليها العروسة ومرة أخرى عند القسيس الذي ينتمي إليها العريس، وأما المهر وكل ما يتعلق بالأثاث والبيت فتعطيه الزوجة.

وقد تحدث الشيخ الطنطاوي عن كثير عن حالات الغش والخداع بين

---

(١) خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيع الخصر.

العشاق، حتى إذا ما نال الشاب إربه اختفى من حياة الفتاة المخدوعة، وأشار إلى افتراق العديد من الأزواج عن زوجاتهم واختيار كل واحد معشوقه ليساكنه.

وأما عادات التتر في الزواج فكما عند المسلمين، وليمة فعقد نكاح بخطبة نكاح ووكيل وشهود ومهر يدفعه الزوج، ومن ثم تقديم الهدايا للضيوف وأخذ النقطة من الضيوف.

وتناول الطنطاوي عادات الروس في التعميد والاحتفالات التي تقام بالمناسبة، كما شرح الأعياد التي يحتفل بها الروس، والأيام التي تعطل فيها المدارس والمعاهد والجامعات وكان عددها ٢٨ مناسبة.

أما ما أسماه بالخط العمومي (الفصل التاسع) فقد اشتمل على وسائل التسلية العامة للناس، ومنها التياتر والنوبة والرقص والمسخرات ولعب الورق وجري الخيل حيث سجل تاريخ نشأة التياتر وكيف وصل إلى روسيا سواء من إيطاليا أو فرنسا أو انجلترا أو النمسا، حتى غدا دار أوبرا تعرض فيه الفنون الروسية والأوروبية الأخرى، كما فصل في تكوين الفرق الموسيقية، (النوبة)، وتحدث عن آلاتها ولاعبيها وقارنها بمثيلتها في مصر، وعلق الطنطاوي على الرقص، ووصفه بأنه مجرد حركات خالية من الفحش وهز الأرداف، وفيه يجتمع الرجال بالنساء، حيث يتكلف الرجل في مخاطبة المرأة مالا يتكلفه في مخاطبة الرجل، وذهب طنطاوي لو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلا قصر النظر عليهم وعدم التعلق بالغلمان لكفى، كيف وفيه فوائد أخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قال في ذلك شعراً؛

ولو أن النساء تبدو بمصر ... ما سمعنا تغزلاً في غلام
كل هيفاء كالغزال بوجه ... ساطع نوره بغير لثام
قلبت برقعاً بعقرب صدغ ... أفمن لدغه الخدود دوامي
ولكل امرىء جليس أنيس ... فاتقوا الله يا أولي الأحلام

أي عذر في عشــق رب عذار في هوى الـغــانيات أي ملام

وأما أنواع الرقص التي كان يمارسها الروسي، فالفلس، والقادريل الفرنساوي والمازورق وقد وصفها وصفاً دقيقاً، ويبدو منه أن الشيخ كان راقصاً متفوقاً وفصل في وسائل وأساليب المسخرات ولعب الورق وأنواعه وكيفيته وجري الخيل وطرائقه وأنـواعـه حيث خلا من المـراهنات والخسارة المادية وقام على المهارة في أداء حركات الفروسية.

وأفرد فصلاً لتقدم الروس:

تقـدم الـروس في العلوم والفنون وله أثر في إنشاء الأكاديميات مثل العلوم والتصوير والطب وغيرها وتأسيس المدارس الكبرى مثل المدرسة القيصرية الكبرى حيث يدرس فيها الطلبة أربع سنوات بعد المراحل الأولى، ويتلقون فيها علوم الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن الطبيعية والجغرافيا والتواريخ والألسن حتى الألسن الشـرقية، كالعـربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرميني والكرجي وغيرها.

ويعقد لهم في نهاية كل عام حلقة بحث لكل موضوع، فإن أجاب رقي إلى السنة الثانية: وكان في روسيا ست مدارس كبرى و ٢٣٠ مكتباً للأطفال، يتعلم فيها الصبيان والبنـات؛ النحـو والمنـطق والـرياضيات والأدبيات والجغـرافيا والتاريخ والألسن والـرقص والتصـوير والمـوسيقى والخياطة وشغل الطارة والإبرة والنسيج للبنات، والأطفال يزاد اللاتيني والروماني القديم كما للصم والبكم مدارس، وقد حضر الشيخ الطنطاوي حفلة رقص للصم والبكم، حيث كان العازف على القانون أعمـى والـراقصـون صم بكم، وأدى العـزف نوبـة راقية ورقص الصم والبكم بحركات وتعبير أدهشه.

وحتى اللقطاء فلهم بيوت للتربية ذكوراً كانوا أم إناثاً، وقد قرر بأنه حتى تاريخه

لم يكن هناك بيوت للقطاء في ديار الإسلام.

كما نبه إلى أنه لا حرج من أخذ الأديب أو العالم أجراً إضافياً عما يكتبه في الجرائد والمجلات، وضرب مثالاً بما تقاضاه الأديب مسيو سكريب حيث بلغ دخله الإضافة ١٨٣٢م، ٤٨,٠٠٠ فرنك.

وفصل طنطاوي في المجلات والجرائد التي كانت معروفة عند الروس مثل الجرائد اليومية وهي، نخل الشمال، السقط، أخبار بتربورغ، والشهرية مثل، ابن الوطن، والكتابة الوطنية والمعاصر، وكازيطية (مجلة) الأدب، وخزانة الكتب، ثم الجرنالات الشهرية للأطفال والتي تحوي نبذاً من العلوم والحكم والحكايات المسلية.

كما قدم الطنطاوي في الفصل التاسع وصفاً لسكن الروس ومعيشتهم ومركوبهم مما لا يختلف كثيراً عما هو معروف في أوروبا بصفة عامة، ووصف أنواع الطعام التي يتناولها الروسي عند الإفطار والغداء وعند المساء، وعادات التدخين وحتى استخدام النرجيلة، وكذا العربات بأنواعها التي تجرها الخيول أو عربات الزحلقة.

وختم كتابه بإعطاء لمحة سريعة عن اللغة الروسية وقواعدها النحوية وكيفية اشتقاقها من اللسان الصقلبي والتاتاري والفرنساوي والنمساوي، وإلى هنا حبس عنان قلمه قائلاً:

يراعى كفي الخوض فالبحر زاخر ولا تتجارى قد جرى منك يا كفي

لقد كان رائد الشيخ الطنطاوي رحمه الله وضع مدنية وتقدم الروس أمام أولى الأمر سواء في مصر أو الدولة العثمانية، فكأن كتابه جاء تقريراً مطولاً يهدف إلى التنوير والإصلاح، يحاول من خلاله أن يحذو حذو الشيخ الطهطاوي فهل كان لتقريره الأثر المنشود.

أهمية رحلة الشيخ الطنطاوي:

لا أرى أن رحلة الشيخ الطنطاوي كانت ذات تأثير في الفكر العربي الحديث مقارنة برحلة الشيخ رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا، فالرحلة إلى البلاد الروسية بقيت بعيدة عن تناول الباحثين والكتاب لسنوات طويلة، بل إنها ظلت مغمورة على رفوف المكتبات فيما عدا النفر القليل الذي ساعدته الظروف في الاطلاع عليها، ولعل مرد ذلك يعود لعدة أمور منها:

- إن رحلة الشيخ طهطاوي كانت لبلاد قد تقدمت في مضمار النظم الدستورية والتعليم والصحافة والحرية والتربية والثقافة في حين أن رحلة الشيخ الطنطاوي قد وقعت لبلاد آخذة في أسباب المدنية والثقافة وتسعى للنهوض بالمجتمع.

- لقد عاد الشيخ الطهطاوي إلى بلده مصر، ووضع ما شاهده وخبره وما صادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيا تلك البقاع، من فكر سياسي واقتصاي واجتماعي وتربوي وعلمي، وساهم بذلك من خلال المؤسسات والمعاهد العلمية التي عمل في إدارتها والجرائد التي رئس تحريرها والمصنفات المترجمة التي نقلها إلى اللسان العربي، فكان تأثيرها النظري مقروناً بالتطبيق العلمي في حين أن الشيخ الطهطاوي عاد إلى بلده بعد أربع سنوات ليصحب زوجته إلى مكان عمله واستمر هناك حتى لقي ربه.

- لقد كان هدف رحلة الشيخ الطهطاوي محدداً وواضحاً منذ البداية وهو إمامة طلبة البعثات إلى فرنسا، ومن ثم الدراسة والانخراط في الحياة العامة، ولكن بعين ناقدة ناقلة، في حين أن رحلة الشيخ الطنطاوي كانت للعمل في التدريس في بطرسبرغ. وبعدما وافق على العرض، استأذن محمد علي في السفر، فحضه محمد علي على تعلُّم لسان الروسيا، ووعده بالإكرام إذا تعلمه، وكتب له مرسوماً بختمه كدليل على التزام محمد علي بما وعد، ولا نعرف من سيرة الشيخ إن كان قد قابل محمد علي مرة أخرى أو كتب له بما شاهده وخَبرَه وصادفه في البلاد

الروسية، بل اننا نجد في ديباجة مقدمة الرحلة ما يفيد أنها أُهديت للسلطان عبد المجيد، وافتتحها بقصيدة في مدح السلطان عبد المجيد، والباحث يطرح سؤالاً مهماً إزاء ذلك، فالعلاقات بين الدولة العلية ومحمد علي باشا كانت متوترة، بل وعدائية في بعض الأحيان، ورأينا أن الشيخ الطنطاوي قد أقدم على إهداء الكتاب للسلطان عبد المجيد بعد وفاة محمد علي باشا وسوء الأحوال في مصر، فرأى في الدولة العلية الأكثر أحقية في تقديم الكتاب إلى سلطانها.

- إنّ منهج رحلة الشيخ الطنطاوي قد نُسج على منوال رحلة الطهطاوي، والرسالة المتبادلة بين الاثنين، الطنطاوي والطهطاوي تدعمنا فيما ذهبنا إليه، فقد اشتملت على منهج رواية الرحلة وجغرافية المكان والسكان ونظام الحكم والملبس والملاهي (وخاصة التياتر والرقص)، والتربية والصحة والتعليم والنظافة، ويهتم بالوسائل الاثنوجرافية (موقع المدينة ومناخها، وطبيعة تربتها، والطبقات التي تكونها خطوط الطول والعرض الآخذة بكروية الأرض والمناخ، وكذا المظاهر الحضارية المتمثلة في التعريف بفروع المعرفة، وأسماء المعاهد والجمعيات العلمية والأدبية، وأسماء المكتبات والمتاحف والحدائق العامة، وقضية المرأة في مجال العمل والعلم والاجتماع، وقضايا السفور والحجاب).

- وبالرغم من ذلك، فإن رحلة الشيخ الطنطاوي تعد وثيقة أدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تعرف أيضاً بحال اللغة في القرن التاسع عشر والمصطلحات التي كانت سائدة، وتعرض للعديد من القضايا اللغوية من تورية وتلميح ونحت واشتقاق واقتباس، وكذا النقل والترجمة من اللغة الروسية إلى العربية، إضافة إلى ما تزخر به ثنايا الرحلة من كلمات عامية مثل (فرنجي، ساوت، الأضياف، انسر، فوقانها، السُفر أي الموائد، وغيرها، علاوة على المواويل التي ضمنت في الكتاب، والنكات واللطائف.

ومع ذلك، فإن رحلة الشيخ الطنطاوي تظل ذات قيمة عالية وشاهداً على

العلاقات العربية ـ الروسية، وأثر الفكر العربي في التأثير على حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر، والرحلة وإن كانت تالية لرحلة الشيخ الطهطاوي من حيث الأهمية، فإنها تقف في صف واحد مع رحلة الشدياق، كشف المخبا والساق على الساق، ومُقَدِّمة على رحلة فرنسيس مراش، رحلة إلى أوروبا، ورحلة محمد شريف سالم إلى أوروبا، وأمين فكري في إرشاد الألباء إلى محاسن الأوروبا، ورحلة محمد بلجوجة، سلوك الأبرياء في مسالك باريس، وعلي أبو الفتوح، سياحة في أوروبا، والدنيا في باريس لأحمد زكي، ورحلة علم الدين للشيخ علي مبارك، وجولة في ربوع أوروبا لمحمد ثابت، وتحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث.

obeikandl.com

مصادر ومراجع المقدمة

- أحمد مختار

رحلة سمو الأمير محمد علي باشا في جنوب إفريقيا سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤م، ط القاهرة، مطبعة الاعتماد. دت.

- آدمز، شارلز

الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس العقاد، ط القاهرة، ١٩٦٠م.

- حجازي، محمود فهمي

أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

- حسين فوزي النجار

رفاعة الطهطاوي (رائد فكر وإمام نهضته)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م (سلسلة أعلام العرب رقم ١٣٠).

- خالد زيادة

ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

- خليل مردم

أعيان القرن الثالث عشر، قدم له وعلق على حواشيه عدنان مردم، ط

obeikandl.com

الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧م.

- الخفاجي، محمد عبد المنعم
الأزهر في ألف عام، بيروت، عالم الكتب، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ٣ مجلدات، ط الثانية، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م.

- الزركلي، خير الدين
الأعلام، بيروت، ١٩٧٩م.

- شيخو، لويس
الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ط بيروت.

- الطهطاوي، رفاعة رافع
- تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، مطبعة بولاق ١٢٦٥ هـ.
- مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية، مطبعة الرغائب، ١٣٣٠ هـ/١٩١٢م.

- علي مبارك
الخطط التوفيقية، ط مصر ١٩٨٦م.

- فتحي رضوان
دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦م.

- كراجكوفسكي، (أغناطيوس)
مع المخطوطات العربية، ط، موسكو، ١٩٦٣م.

- قلفاط (نخلة)
تاريخ بطرس الأكبر، ط بيروت، المطبعة اللبنانية، ١٨٨٦م.

obeikandl.com

- محمد ثابت
جولة في ربوع أوروبا (بين مصر وايسلندا)، ط مصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨م.

- محمد عبد الغني حسن
أعلام من الشرق والغرب، عربي في بلاد الصقالبة، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مصر، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد ١٩٤٩م.

- ناجي نجيب
- الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٣م.
- رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٣م.

- الدوريات والمجلات (مقالات)
أحمد تيمور، مقالة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، (٤١٧ - ٤٢٨)، ١٣٤٧ هـ.
ونشرت أيضاً في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الرابع، الجزء التاسع، والجزء الثاني عشر، ١٩٢٤م.

- كراجكوفسكي (اغناطيوس)
- مقالة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، ١٣٤٧ (بالتعاون مع أحمد تيمور).

- محفوظ حسين علي
محمد عياد الطنطاوي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع، ١٩٦٤م.

- محمد أمين حسونة
محمد عياد الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٥٤٩، يناير ١٩٤٣م.

مصادر أجنبية

- Kosegarten, J.G; Scheikh Tantawi

Zeitschrift Fur die Kuwde des Morgenlands, vll: 1850 PP. 43-67, 197 - 200.

ZDMG. IV: 240 - 243.

- Levitsky, H

Kiev, Mistetstvo Publishers Kiev, Progress Publishers, Moscow, 1980.

- Marquis de Custine

Empire of the Czar (a journey through eternal Russia, 1939, U.S.A. 1989.

obeikandl.com

هذا كتاب

صورة صفحة العنوان من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن سير سيرة العالم في نقوا قطار العالم وقيض
له اعوانا يعضدونه وانصارا يحوطونه وصلاة وسلاما على سيدنا
محمد بن جعله اهل الملا ووده الغراء فهاجر بجوه طيبة الى المدينة
الغراء وعلى اله المهاجرين والانصار اناء الليل واطراف النهار
اما بعد فيقول محمد بن سعد عياد اجراه الله على نهج الرشاد
العلم راس مال الاكياس والجهل لكل ضرب اساس والعلم لا حد له ولا
نهاية ويحر لا سيف له ولا غاية والمشتغل به كل يوم يرى جديدا
ويستنبط بديعا فريدا

ما حوى العلم جبيا رجل ... ولو عارسه الف سنه
انما العلم كبحر لجه ... فخذوا من كل شئ احسنه

ويزداد بالاسفار وجوب البراري والبحار ومعاشرة اجناس
العالم اذ سعة البلاد والنظر فيما ابدعوه من البدائع التي ليس
لها نفاد واما من لازم وطنه ولم يفارق من اصر الدار رسنه فتراه
كالصغير الذي يكبر في العراق الحجر وكان ضيق العطن قليل الحجر كما قلت
حين سافرت

ومن لم يغترب في كل قطر ... فكالطفل الذي في مهده
تراه ساذجا لا علم يدري ... ويبكي حيث فارقها لهمته

فلهذا رغب عقلاء الامم على اختلاف اجناسهم في السفر ولم يجانبوا
لغط نفسه ما فيه من الخطر وقد كان ذلك دين الافاضل
وداب الاماثل وانظرها اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني
السعد التفتازاني بقوله رحمه الله

يوما بجاوى ويوما بالعقيق وبالـ ... ـخنيصاء يوما ويوما بالخنيصاء

ويقول في موضع آخر

انا في العلم مثله ... ... لا لعلم الا لعلم قطنه
غير اني اقل من ... ... سيرة من سير وجله
وغريب الديار لو هل ... ... بطويل لم تطب له

ولقد قال ابو الطيب احمد بن محمد العزيز المقدسي

يا واقفا بين النواشي نهلة ... ... عطشان يطلب سربة من ماء
انا البلاد كثيرة اجنابها ... ... وسحابها يغزر مرة الصنواء
ما اختلفت الدنيا واعدم الذكـ ... ـاء فهل ضاقت على العلماء
ارض بارض والذي خلق الورى ... ... قسم الارزاق بين الاحياء

وقد اتاح الله في البلاد الرحيبة الواسعة واقطار الجهة
الشاسعة بسبب طلبوه وتهمة لاجلها العربية فحدثت
الالسن الشرقية فوافق ذلك ما تحدث من الميل الحسن وسرت
لادلوى على اهل بحر وطن والعاقل انما هو مع كينونة واما هل
غريب في وطنه ... ... وما عاقل في بلدة بغريب

هذا مع شغف النفس بالاوطان وتاسفها على فراق الاهل
والخلان فما الا ذكان الناس يتشوقون الى اوطانهم ويتنهدون
العلة في ذلك الحنين الى اصلها ابدا ولهذا قال ابو تمام في قصيدته لسليمان بن
عبد الله يستعديه على رجل من التجار يعوق بابن له عامل جرم على بيع
دار واغتصبه بعض حدودها فقال

قل لوطن الا بيت الا بيته ... ... وان لا ارى لغير الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة ... ... كنعمة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحبب اوطان الرجال اليهم ... ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم ... ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

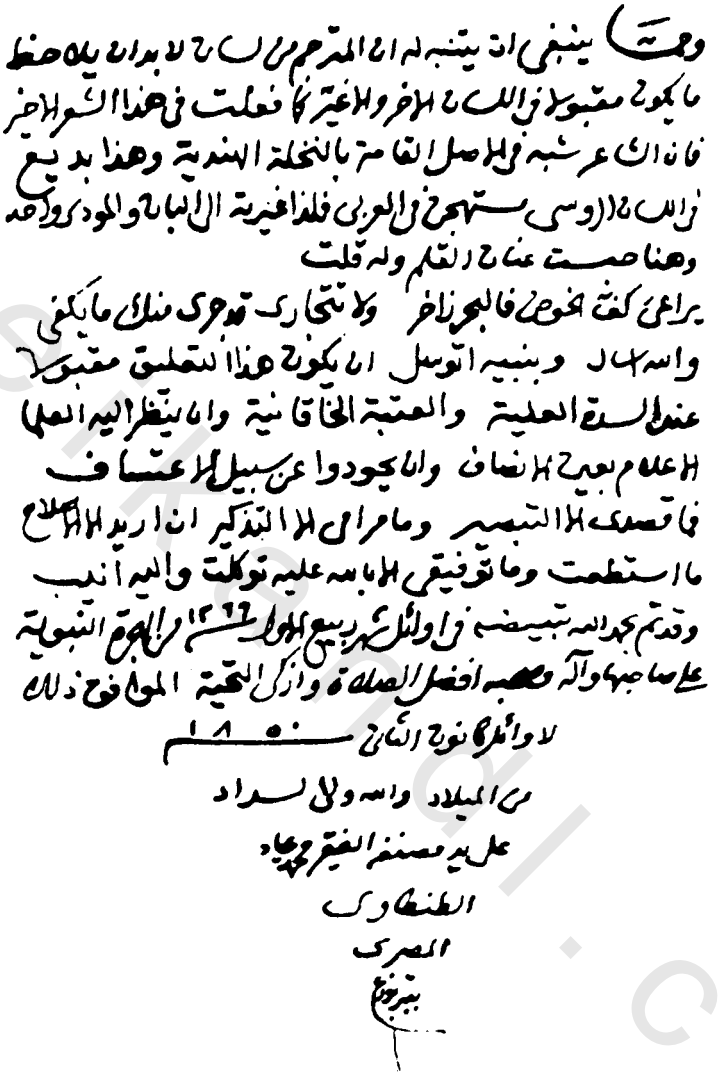

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

هذا كتاب

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
للعبـد الفقيـر الشيـخ محمد عياد
المصري الطنطاوي غفـر الله ذنوبه
وستر عيوبه.

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٢/ حمداً لمن سيَّر سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقيّضَ ٢/ له أعواناً يعضدونه وأنصاراً يحمدونه، وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده، وودّه الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء، وعلى آله المهاجرين والأنصار، آناء الليل وأطراف النهار.

أمّا بعد؛

فيقول محمد بن سعد عياد ـ أجراه الله على مناهج الرشاد ـ: العلم رأس مال الأكياس، والجهل لكل ضرر أساس، والعِلم لا حدَّ له ولا نهاية، وبحره لا سيفَ له ولا غاية، والمشتغِل به كل يوم يدرِك جديداً، ويستنبط بديعاً فريداً:

ما حوى العلم جميعاً رجل ... لا ولو مارسه ألف سنه
إنّما العلم بعيداً نيله ... فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسفار، وجَوْب البراري ووالبحار، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد، والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد، وأمّا مَنْ لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحج، وكان ضيّق العِطن، قليل الحجة، كما قلت حين سافرت:

ومَن لم يغترب في كل قطرٍ ... فكالطفل الذي في حِجر أمِّه
تراه ساذجاً لا عِلمَ يدري ... ويبكي حيث فارقها لهمِّه

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر، ولم يبالوا لفرط

اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني[1]، بقول الشاعر:

يومـاً بجـزوى ويومـاً بالـعـقيق وبالعُذيـب يوماً ويوماً بالخُليصاء

٣/ ويقول الحريري؛

أنـا في الـعـالـم مُثـله ولأهـل الـعِـلم قِبـلهْ
غير أنّـي كلَّ يومٍ بين تعـريسٍ ودُخْـله
وغـريب الـدار لو حلَّ بطوبـى لم تَطِبْ لهْ

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي؛

يا واقـفـاً بين الـفـرات ودجـلة عطشـان يطلب شربـة من ماء
إن الـبـلاد كثـيرة أنـهـارهـا وسـحـابـهـا فغـزيرة الأنـواء
ما اختـلت الـدنـيا ولا عدم النـ ـدى فيها ولا ضاقت على العلماءِ
أرضٌ بأرضٍ والـذي خلقَ الورى قد قسَّـمَ الأرزاقَ في الأحـياءِ

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشاسعة، بسبب طلب دولتها لي أُعلِّمُ اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا ألوي على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه وما عاقل في بلدة بغريب، هذا مع شغف النفس بالأوطان، وتأسفها على فراق الأهل والخِلّان.

قال الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك إلى

(١) هو مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، سعد الدين، ت ٧٩١ هـ/١٣٨٩م. انظر السيوطي، بغية الوعاة، ٣٩١، ابن حجر: الدرر الكامنة، ٤/٣٥٠، الشوكاني: البدر الطالع، ٢/٣٠٣.

أن أوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن عبدالله، يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها، فقال:

ولـي وطـنٌ آليتُ أن لا أبيعـه ... وأن لا أرى لغيره الـدهـرَ مالكـا
عهـدت به شرخ الشبـاب ونعمـة ... كنعمـةِ يومٍ أصبحـوا في ظلالكا
وحـبَّبَ أوطـانَ الـرِّجـال إليهمُ ... مآرب قضَّـاهـا الشبـاب هنـالكـا
إذا ذَكَـروا أوطـانـهـم ذكَّـرتهمُ ... عهـود الصِّبـا فيهـا فحنُّـوا لذالكـا
٤/فقـد ألفَتـهُ النفس حتَّى كأنَّـه ... لهـا جسـدٌ إن بان غودرَ هالكـا

وعنـد إبـرام العـزم على الـظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أُسطّرَ في سفري هذا كتاباً، أودع فيه ما يَعـذُب مذاقـاً، ويطيب شرابـاً مِن بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكـات أدبية، وطُـرَف استحسـانية، ومُلَح اختـراعية، فأجبت السؤال، وبادرت الامتثال، وشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكياء بأخبـار مملكة الروسيا»، ولما حان حين تمامه، وبدا بعد النقض حسن إبرامه، أردت أن أُشرف ديباجته، وأُزين فاتحته بذِكْر اسم مولانا أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وارث تخت السلطنة كابراً عن كابر، الممدوح اسمه على أعواد المنابر، السائر عدله سير المثل السائر، والسائل كرمه سيل البحر الزاخر، حامل أعباء الخلافة على كاهله، ومجدد ما اندرس من معالم الدين ومناهله، الباني على ما شيد سلفه الصالح، الباني على ما يقوي الدولة من المصالح، حامي الدولة العلية، وناصر المملكة العثمانية، القائل عزمة الظافر، كم ترك الأول للآخر، والمنشد فخره بين الملأ، قول المعري أبي العلاء؛

وإنـي وإن كنـتُ الأخيرَ زمـانـه ... لآتٍ بمـا لم تستـطعـه الأوائـل

والمتمثل رعيته لما عمّها من الخصب والسهل، بقول ابن سهل: «جاءنا آخر

الـزمان كما تفتر عند الأصائل الأزهار». مولانا السلطان ابن السلطان المحفوف بعناية الملك المجيد، والملحوظ بحسن التأييد على التأييد مولانا السلطان ٥/ عبد المجيد:

لا زالَ للإسـلام أشـرف كعبـة ... لم تخْـلُ يومـاً من طوافِ وفود

وقلت مقرظاً اسمه الشريف بقصيدة أوّل صدورها حضرة السلطان عبد المجيد خان، وأوّل أعجازها خلّد الله ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمت بالـظبى هيفـاء بنت عيد ... خدود ورود عن ورود عيد
ضنيت أسىً من ميلها وهي بانـة ... لهـا حسن ثغر كالجمـان نضيد
رنت بلحاظ فاعترى الظبي خجلة ... دهـتـه وآوتـه لبـلقـعِ بيدِ
هفـا نحـوهـا قلبي فقـال رقيبهـا ... أتـهـفـو فقـلت الـلوم غير مفيد
أأنـقـاد غياً في هواهـا كمـسلم ... لهـدي أمـير الـمـؤمـنـين رشـيد
لفخـر بني عثمـان خاقـان أرضها ... لحـائـز مجـدٍ طارفٍ وتـلـيد
سليل الأسـاطين الكـرام وفـائق ... هصـور طويل البـاع أصيد صيد
له الله من ملكٍ محـا بحسـامـه ... مآثـر ظلم في الـعـبـاد شديد
طبـيب بأدواء الـخـلافـة عالـم ... لديه دواء الـجـبـر ليس بعـيد
أفـاض على الإسلام صيّب عدله ... كغـيث على قفـراء جس جيد
نمـا الخصب ما بين الـرعايا بوقته ... هنـيئـاً لتـنـظيم أشـاد سديد
علا درجـات ساميات إلى السهى ... إلـى حسـب عالـي النجـار عتيد
بنى وأقـام الـدين فازداد مجـده ... لهـذا دعـاه النـاس عبـد مجيد
دعا الناس بالحسنى لما فيه خيرهم ... يسـير إلـى الـيمـين بكـل سعيد
أعـدَّ لنصـر الـدين كل سُميدع ... أفـاض عليه سابـغـات حديد
لعسكـره الجـرار صولـة زاخـر ... خضـم بأمـواج الـرداء مديد
مهيب شديد البـأس في حومـة الوغى ... رؤوف وحـيد الـعـصـر خير فريد

جرى مدحه في عالم الأدب الذي أتـى بنـظام معـجـز للبـيد
يجـود على العـافي بجـزل رفـده لمـحسـوب ذياك الحمى ووصيد

٦/دنـوت بآمـالي إلى روض جنة زهـى حلا شِعـري به وقـصيدي
خدمت ببيت الشعـر عالي بابـه مريد الـعـلى فالبـاب خير عميد
أتـيت إلـيه خاضـعـاً لعـلوه أخـوض غمـاراً أو بطيء بريد
نعـمـنـا ولـلدنـيا به ورعـيتـه نعـيم فأيام الأنـام كعـيد

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتر بورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغربة، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتاح سنة ست وخمسين بعد الألف والمائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مارس الافرنجي (يعني آذار) سنة ١٨٤٠م مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية، الجاري على بلاد فرانسا والنيمسا ونحوها، وأمّا على حساب الروسيا فينقصون اثني عشر يوماً، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مارس، ويسمى الأوّل الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأوّل السنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أمّا ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم من حيث أني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالروس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشييع:

وكان أوّل عهد العين من جَزعٍ ... بالدمع آخر عهد القلب بالجَلَدِ

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادىء، والقمر هادىء، والملاح حادي، والنوى شادي، فهبّت بعد برهة ٧/روائع الأزهار، فاستنشقها الأنف ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنينة شبرى الفائقة على البساتين قدرا:

كهيفاء رامت تختفي في شعورها ... فنمَّ عليها عَرفُها وسوارها

ثم في الصباح، تلاعَبَ الموجُ بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند بلد يقال لها «زاوية رزين»، وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفارى شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زيّى وكثر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف الصيداوي مجيباً في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منها انطلق والأسر راح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهم بي أرسى
مذ غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

وقد ساعده الوقت على إحكام التورية، وقوله: والفلك فيكم جرى، معناه: إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السما

ثم سرنا بعد هدوء الريح قليلاً، ولا زلنا في سير ووقوف، وجرايان وتجديف غروف، حتى وصلنا بعد اللتيا والتي ثغر الإسكندرية ليلة الجمعة بعد غلق الأبواب، فلم نستطع الوصول إليها بسبب من الأسباب، فقلت متغزلاً مشيراً لقصة زليخا مع يوسف لمّا غلّقت عليه الأبواب وقالت له (هيت لك)، وهذا يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك فغلّقت أبوابها ولم تقل لي هَيْتَّ لك

٨/ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة الروسيا وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سفير الدولة الروسية في بلاد أمريكا بعد أن كان سفيرها في بلاد الفرس، فأقمت عنده أسبوعاً بغاية الإكرام ووفور الاحترام، وهو الذي هيّجني حين كان في مصر على الذهاب إلى بلاد الروسيا، وذلك أنّ الأمم منذ تقدمت في التمدن، علمت فائدة ارتباطها بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

الناس بالناس فلا تنفرد وكن أخا حزم وتعيش
ما لقويٍّ عن ضعيف غِنى لا بدَّ للسهم من الريش

فلذلك أنشأت مدارس للألسن الغريبة، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن لكي تكون لها ترجمانات عند الحاجات، ولقوة الدولة الروسية، وكثرة ارتباطها بالدول الغريبة، فعلت ذلك وتقدمت فيه على غيرها، حتى أنه يوجد فيها من أهل الألسن المختلفة ما لا يوجد في غيرها، وقد اعتنى وزير الغرباء سعادة «الكونت نسل روض» بالألسن الشرقية، فأنشأ لها مدرسة مخصوصة غير قانع بالمدرسة العمومية لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في الأوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل الجنرال «مرزا جعفر» معلم اللسان الفارسي، ومربي التلاميذ والتراجمة الروسية، ليس فقط في هذا اللسان بل وفي اللسان التركي، وفيها الجنرال «ديمزون» وهو وإن كان ليس مشرقياً، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث إنه يتكلم بها بالسهولة، ومن حيث إن سعادة الوزير مفتن بإحياء مدرسته، ولا زال في كل حين يجتهد في تسهيل ٩/تعلّم التلاميذ، فلهذا لما توجه جناب «الكونت ميدن» إلى الديار المصرية كلفه بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث اني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرنيل» الذي طالع معي كتباً عربية أدبية وتاريخية،

واكتسب في هذا اللسان مهارة ألمعية، بسبب كثرة صحبة العرب وألمعيته. طلب مني الذهاب، فأجبت ومِن مدة بضع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدنها، وحامي ذمارها ومؤمنها، فأذِن لي وطلب حضوري، فمثلت بين يديه، فأمرني بالجلوس، فامتثلت أمره المأنوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسيا، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته، لأنه مشغوف بجلب الألسن الغريبة إلى بلاده، ولهذا ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصاً في اللسان الفرنساوي، وكتب لي مرسوماً بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقاً لمصر وأهلي فيها:

فاض جفني بماء دمع حميم ... لتناءي صحابة وحميم
حيث فارقت غير قالٍ دياري ... ومباني علومها والفهوم
حيث نيطت عمائمي وألمت ... بي ثيابُ الصبا وبرد النعيم
تعتريني الخطوب منكدرات ... تتوالى وتارةً في نجوم
ولثغر الإسكندرية يممت ... لطرد العنا وصرف الهموم
بلد أهله حماة ذمارٍ ... لم يكونوا كمثل ذا من قديم
ودعاني عزيز مصر إليه ... وحباني بالعزِّ والتكريم
قال لا تُضع زمانك إلّا ... في اكتساب العلوم والتعليم
فيميناً لأرحلَنَّ سريعاً ... لبلاد الشمال أفق النسيم
أنا نجمٌ وكم بمصرَ شموس ... ومع الشمس كيف مرأى النجوم
١٠/فلهذا برزغت نحو بلاد ... أنا فيها شمس لكشف الغيوم
في سفين النيران قالوا ولكن ... هي عندي تدعى سفين النعيم
جنة جُنَّة تجود في البحر ... ولو هاج مثل خيل هيم
ما شراع بها فيخرقه الر ... يح وتلقى حملاً كحمل الدهيم
مثل ما قد عانيت في نيل مصر ... حيث كنا تحت العناء الوخيم
كم سفين هوت بما كان فيها ... لاعتساف الملاح من سوء خيم

ثم نزلت في سفينة بخار نيمساوية ٢٦ آذار وفيها ثلاث درجات؛

الأولى: جهة الدفة، وهي مشتملة على عدة أوض: ديوان وسفرة للطعام، وفيها كتب لمن أراد المطالعة.

والثانية: جهة السِكّان وليست كالأولى.

والثالثة: في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكراد.

ووقت الغذاء مقرر، وكل مَن طلب شيئاً أحضره له الخدامون، ولو كان الثمن أغلى بسبب عدم السوق، وسرت في البحر الأُجاج، المتلاطم الأمواج، وذلك أوّل ركوبي المالح، والوابور، فحصل لي دوخة وتقايآت، وضاقت نفسي، فذكرت قول ابن رشيق:

البحر صعب المذاق مرُّ ... لا جُعِلَت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين ... فما عسى صبرنا عليه

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك:

النيل غضبان عليّ كأنه ... لصحبتي لا يرتضي بتنائي
وأرى الأُجاجَ الملحَ عذباً سيره ... فكأنّه متشوقٌ للقائي

وقلت:

وابورنا ونارُ كانونه ... من هول هذا البحر نصران
أزرقُ فيهِ زبدٌ أبيض ... كأنّه كشمير نصراني

١١/وفي ذلك اليوم لم نر أرضاً أصلاً كما قلت:

والبحر أزرق كالسماء ولا نرى ... أرضاً كأنّا في طباق سماء

ثم وصلنا جزيرة جريدة ـ إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها

جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصبة بسبب كثرة الينابيع. والإقامة فيها أحسن ما يكون في الدنيا كما قيل، لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفة، والمعادن الكثيرة، وافرة المحصولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتان والعسل والشمع والحرير والقطن والسمك والطير، وقد قاست كثيراً من التقلبات والفتن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الرومان مليوناً ومائتي ألف، والآن نحو خمسماية ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء الجزيرة، وروم، وبعض يهود، وأرمن.

وأرسينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة يحيط بها البيوت المبيضة، فحكت لنا مباني الروم إذ كانت أوّل ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقد رأيناها موقودة لأننا وصلنا في الليل، وفي الصباح اجتمعت الناس أفواجاً على الساحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافروهكذا في كل البلاد. هذه الأعجوبة لم تنقض جدتها ولا أظنها تنقضي. ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول حُبس وعُدَّ كلامه كالهذيان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالاً لعملها، فأعطاه ثم لمّا عملها وسيّرها أخبره، فلما حضر واجتمع الجمُّ الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأنّي سيرتها البارح، ولكن بعض الحساد لعب في آلاتها، فما استمع له نابليون، فلما حُبس في جزيرة ألين، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على ١٢/حسرته، وعضّ بنان الندم. وقلت في سفينة نار كان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مُوَرِّياً:

هذي العجيبة لا تَقَضَّى جدة ... هي جنة قد صُوِّرَت من نار
فيها لبيت الله ساروا شُرَّعاً ... فغدت منافع مسلمٍ ببخار

وعسر عليّ جداً الخروج لرؤية هذه المدينة بسبب الطاعون المصري المقتضي حبسنا في هذه السفينة ثم في الكرانتينة حتى نتطهر من هذا الحدث

الأكبر، فما خرجنا أبداً إلّا عند اسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ مَن لمس انتقض طهره، ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولاً، فقلت:

يا راكباً لجج المياه مخاطراً ... لا تغترر إن مرّ يومٌ صالح
لا يُنضح الماعون إلّا بالذي ... قد حلّ فيه وهو بحرٌ مالح

وقلت:

للروم بحرٌ أزرق ... كعيونهم لي مُقلقُ
لكنه متشعّبٌ ... والطرف منهم ضيّقُ
لا تعجبوا إن خِفتُه ... فهو العدوُّ الأزرق
فلذاك قلبي نحو بحـ ... ـر النيل دوماً شيّقُ

وقلت عن طريق التخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقي
لم أخشَ من خطر السفار وأتقي
بل جبتُ فيه مغرباً مِن مشرقٍ
وركبت لجةَ بحر رومٍ أزرق ... من خَطْبه هيهات ما لي مشفقُ
أغبر عيشٍ بالتصافي أخضر
والعود من بعد اسوداد مقمرُ
وازور محبوب بديع أصفر
وقد حلا فيه الممات الأحمر ... وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري، فهذا أغبر العيش الأخضر. . إلخ. وقلت ١٣/:

يا ليتني مثل الحريري قد رثى ... له من الخُطَبِ العدو الأزرق

وقلت مواليا:

يا ناس على شان غزال البـر في الأبحـار
نزلـت أدور وفـي الحـال خدت مركب نار
أنـا ترابـي وجـانـي الـضـد ليل ونـهـار
أهـين من البحـر أهين من الهـوا والنـار

وفي «الهوى» بمعنى «الحب»، وكذلك في النار تورية بمعنى العشق.

ثم أرسينا ثالث يوم عند جزيرة سيرة وبها محل الكرنتينة ككنى، وبقربها منارة، وتزودنا منها لسفينتنا فحم الحجر، فوقودها الحجارة لأنها سقر.

ثم سرنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزمير، وهي مدينة عظيمة من بلاد الأناضول، بها كثير من الأشجار والمباني، وهي شبه جزيرة لأن البحر لا يحيط بهـا من جميع النواحي، واعلم أن بعض علمائنا يطلق على شبه الجزيرة جزيرة كقولهم: جزيرة الأندلس، وهي تجوز بسبب المشابهة كما نبه عليه الشهاب الخفـاجي: «وهـا هنـا نكتـة لطيفة»، وهي أن بعض مترجمي مصر ترجم كلمة «بـريسيكل» بالفرنساوية بقوله: «بحيث جزيرة» وهذا من ضِيق العطن، لأن هذا التـركيب لا يحسن في العربية، وزاد ذلك تعسفاً بضم الباء التي هي حرف جر فيكـون تصغير بحث، وهـو خروج عن البحث وقد غربت عنه فصاحة استعمال حيث، فإنها لا تضاف إلى المفرد إلّا نادراً، وأيضاً أراد الاختصار فوقع في الإطناب من حيث لا يشعـر، فإنـه ترجم بثلاث كلمـات مع الـركـاكـة، فحقّ أن يقـال له: «حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»، والذي ألجأه إلى ذلك أن كلمة «بريسك» تترجم تارة ببحيث، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول: شبه جزيرة كما قلنا:

١٤/ومكلف الأشياء ضد طبـاعها متـطلب في الـمـاء جذوة نار

وهذا باللغة الروسية «بولواوستروف» أي: نصف جزيرة. وقد دخلت أزمير عند

رجوعي إلى مصر، فوجدتها بلداً كثيرة الزحام، نافقة المتجر، بها كثير من الروم والغرباء، ورأيت فيها بيوت الروم مبلطات بالرخام من أسفل، وعند رجوعي ثانياً من مصر كرتنت في بيت ظريف على خورها، محفوف بالكروم والأشجار، فأعقمنا هذه الأعناب، فلم يولد لها بنت تسحر الألباب، ثم مررنا على بحر مرمرة، وعندها ساعد اعتدال الهواء الماء والنار، وقرب الأرض المخضرة بالأشجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد وقلاع وجبال وتلاع، ورأينا سمكاً يطفو على الماء، وكذلك في الخليج القسطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسلام والتخت الشامخ على الدوام، مدينة قسطنطينية المحروسة ونعمنا بطلعتها المأنوسة، وكان ذلك ليلة السبت، فحصلت لنا الراحة والسبت. لكن أسفت جداً على الوصول ليلاً، بسبب عدم إبصار المواضع القريبة، وشكرت النار التي أخرجتني من الماء، إذ المراكب القلعية تمكث شهراً أو أكثر، فقلت حينئذ:

لم يَدرِ عُبّاد السعير بنفعها ... بل أجّجوها في هباء هواء
وأرى الفرنج درت بخالص سرها ... إذ سيّرت سفناً بها في الماء
مع أنهم لم يعبدوا فكأنهم ... قصدوا التماس العذر للقدماءِ

ومرسى اسلامبول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع، لأنها ملتقى أوروبا وآسيا بين البحر المتوسط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال، تتابع فيها قوافل آسيا ١٥/وسفائن أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع مملوءة بأمم عديدة وطوائف شتى من الترك والأرمن والروم واليهود والفرنساوية وغيرهم، نافقة المتجر، بهية المنظر، يظهر عليها الخصب والخير والترف والمير، وزوارقها كالقسي. ونزلنا من الوابور في زورق في الخليج القسطنطيني إلى قصر الكرنتينة في اسكدار، وهي مدينة كبيرة من آسيا أمام اسلامبول على شاطيء الخليج القسطنطيني الأيمن، فيها نحو مائة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق

ذات بهجة، وقرافات مملوءة بقبور الرخام في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية على الطرفين خصوصاً من سراية حضرة مولانا السلطان، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلمٌ ولا لسان، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها، فهي حرية بقول من قال:

إنّ الـمـلوك إذا أرادوا ذكـرهـم من بعـدهـم فبـألـسـن الـبـنيان
إنّ الـبـنـاء إذا تعـاظـم قدره أضـحـى يدل على ارتفـاع البـاني

فقلت:

مذ لاحت اسلامبول وهي التي من يرهـا ودّبـهـا مسكـنـه
علمت أني ضاع عمـري سدى في مصـر دار الـذل والمسكنه
نسـيت من حسـن مشيداتهـا أني يُغـدى بي إلى الكـرتنـه

فإن قلت: لِمَ قلت الكرتنة، وإنما هي الكرنتينه؟ لأن أصلها كرانتين كلمة أفرنجية من «كرانت» أي «أربعين»، لأنها كانت أولاً كذلك، وأمّا الآن فأربعة عشر يوماً، قلت: نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الكلمة اشتقوا منها فعلاً مع القلب فقالوا: كرتن يكرتن ومصدره الكرتنه. وقَصْرُ الكرنتينة باسكدار على الخليج، وبه أوض كثيرة للأمتعة والمسافرين، وفيه حنفيات كثيرة، عذبة للوضوء. ١٦/وغيرها من المرافق، فلا يحتاج للسقايين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر، فإنها محتاجة للسقايين ولو على النيل، وبقربه مقبرة للمسلسمين وأخرى لغيرهم، فمن مات أيام الكرنتينه دُفن هناك، وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوارٍ ماتت إحداهن بالجُدري، فغسلت وكفنت ودفنت هناك، وقد أخبرني ناظر الكرنتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين فقد من اسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد لله:

قالت وقـد عزمت على ترحـالهـا ماذا تود فقـلت أن لا ترجـعـي

فمتى تُفقد مِن مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد وتهلك العباد، وقد أُصبت في طاعون سنة ١٢٥٢ هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم، وكان رأسي ثقيلاً جداً وخيف عليّ الهلاك وقت البحران، وغاب عني الإحساس والعرفان، ولكن الله سلّم، فانفتحت كرة الخطوب وبثرة الكروب، فهل سمعت قولي:

يكفيكِ يا كرةَ الخطوب إقامةً ... وتدحرجري ما للكرات قرار
وتفجري لو كنت أنتِ حجارة ... فلربما تتفجر الأحجار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، وانضم الفتح، وكان لي وِرْدٌ أقرأه للحفظ صباحاً ومساءً، فلتنفيذ إرادة الله نمت ذلك اليوم مستأخراً، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأُشيع في القاهرة موتي، فلما علمت بذلك قلت مضمناً:

تمنّى أُناس أن أموتَ وإنْ أمُت ... فتلك طريق لست فيها بأوحدِ
وإن أظهروا موتي فليس بمُنكر ... إذا أظهر الشيطانُ موت محمد

وهذا تلميح لإشاعة قتل الشيطان محمداً، يعني النبي ﷺ في بعض الغزوات. ثم إنّ قصر الكرنتينه تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب. ١٧/والجبل مملوءة بالخضرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محلة كجبل الجيوشي بمصر، فما ألطف العبور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود، فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة، مسكن الأمراء أيّام الصيف، ثم خرجت من الكرنتينة ونزلت غلطة، وهي بلدة كبيرة مشحونة بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في المشي، أمام اسلامبول، وبها قبة عالية سلالمها كالمنارة، لكن في وسطها اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي نظرت فيها المراكب والقصور واسلامبول والمنارات، فنظرت من ذلك أحسن منظر، وفيها ساعة دقاقة من حديد، ثم ذهبت في زورق

إلى اسلامبول، فوجدتها لطيفة جداً إلّا أن لطف الظاهر أبدع، ولعل بهمّة مولانا السلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يوماً، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجد كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصاً قبور السلاطين، ففيها تأنُّق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهليها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والسيلانة الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى والعطر، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي تختم بها وبيوتها مبلطة بالخشب وسقوفها مسنمة بالحجارة والخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر كما فيها أيام الشتاء وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في اسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحداً مات من عضة كلب كما في بتر بورغ وأطرافها، فإنه ١٨/تارةً يتفق ولو نادراً وجود هذه المصيبة، وقد وجدت منذ سنين عدة كلاب بعضها كان بيتياً، وعض بنتاً صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها هذا الداء وهو كريه جداً، لأنه لا يقصر على من عضه الكلب، بل كل من عضه المعضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيواناً فيصير الإنسان أو الحيوان سعراناً، وكذلك كل من عضه وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر تارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكَلَب، قال الشاعر:

بنـاةُ مكـارمٍ وأُسـاةُ كَلْمٍ دمـاؤكـم من الـكَلَبِ شفـاءُ

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «بالكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضاً الكَلَب المسمى الدانيمارقي لا يوجد في دانيمارق، وقد تنسب بعض الأشياء

لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلاً يسمون تارة المطاوي التي تصنع في مصر مطاوي إنكليزي، والشفر ونحوها المشغولة في الروسيا نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاؤلاً كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاؤلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل، والمسلمون في اسلامبول يغلقون دكاكينهم يوم الجمعة، كما أن اليهود يغلقون يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يغلقون حوانيتهم إلّا في العيد الصغير والكبير.

ولقد صليت ١٩/ الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم، البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلّا أن الخطيب تارة يتأنق في الخطبة زيادة عن العادة، وطوراً يسرع وتارةً يُسِرّ وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدرابزين صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإنّ مَن يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولعل سبب اتخاذ ذلك الموضع أنه ربما كثُر الزحام، فلا يجد القارىء موضعاً إلّا بالمزاحمة، ولا توجد في هذه الجوامع ميضّئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب.

وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقى منها، ويملأ السقاؤون منها قربهم ويحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقاؤون يُحملون القِرَب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقِلّتها بالقسطنطينية، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر، فبكثرة مع عدم الغطاء. ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسود. ومن المباني العجيبة بالقسطنطينية قبة أيا صوفية، وتسمى قبة السماء، كأنها هرم ما ضارّها قِدَمٌ ولا هَرَم، جامع متين، وأصله كنيسة لقسطنطين، خربت واحترقت، فبناها يوستينيان، وصرف فيها على ما قيل خراجَ مصر سبع عشرة سنة، وضاهى بها الباني المسجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسلام في كعبة اسلامبول مسجداً أقصى، ففي سنة ٨٥٧ لما افتتح السلطان محمد الثاني

المدينة، دخل هذه الكنيسة راكباً على حصانه، وبعدما صلى فيها وأزال آثار عباد الصليب وصورهم، جعلها مسجداً يتلى فيه القرآن بدل الإنجيل، فجزاه الله خيراً على سعيه الجميل، ويرشد لذلك وضع القبلة ٢٠/والمنبر، فإن المنبر بارز في جانب القبلة خارجة من الحائط وبينهما مسافة والعادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقاً بالقبلة، وتكون القبلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقربهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبواسطة خابية كبيرة من رخام يستقى منها، وفيه كثير من العرب خَدَمَة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه خمسة عميان وبصيراً يقرأون البُردة كما في مصر، وتلفظهم حسن، لأن أصلهم عرب، فأعجبني ذلك، إلّا أنهم يلحنون، وهم معذورون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها في مصر، بلد العربية، ويقول بعضهم:

مولاي صلِّ على مَن حلَّ في الحرم محمد المصطفى المخصوص بالكرَم

بدل قول المصريين:

مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

وهذا حسن لعدم إفراد الصلاة عن السلام المكروه عند البعض، ويقرأ الباقون بيتاً من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة. وقبة البنية عالية، ومناراتها أربع سامية، وقد اعتنى مولانا السلطان بتعمير هذا البناء، فجوزي خيراً على هذا الاعتناء: ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلّا الله**﴾.

لطيفة:

اعلم أن اسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كستنتبول، أو نحو ذلك، يعني بلد قسطنطين، فلما

أخذها المسلمون، قالوا: اسلامبول ـ أي بلد الإسلام ـ ولم تبق التسمية القديمة إلّا عند النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر يقولون: اصطنبول، قيل هذا مأخوذ ٢١/من لسان الأروام، لأن استينبولي معناها «إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مراراً عديدة الروم يقولون هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثال مصر «جاء من اصطنبول في علبة» أي حضري غير فلاح، يقولون ذلك هزواً، ويقولون أيضاً: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صاداً وقالوا: اصتنبولي، أو: استنبولي، وقلت مواليا:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافـرت اجـريد ورحت ازمير واصتنبـول
رأيت ملاح شكـلهم في كل شيء مقبـول
ما عنـدهم شي رزالـة زي ما في مصـر
علل على الـقـلب لكـن يلتـقـوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف، ولم أستنكـر من اسـلامبول إلّا قواويق[1] الأرمن التي هي كالبوش، وزي النساء في الأسواق، ومسألة الذوق لا حرج فيها، وكل حزب بما لديهم فرحون:

لا تعـذل الإنسـان في شهـواتـه في الناس من يلتذ طعم الحُصرم

وكذلك صعوبة الطرقات في بعض الجهات بحيث يعسر فيها مشي العربات، ولذلك الغالب فيها المشي أو ركوب الخيل، فهي أجدر بأن تكون جحيم الخيل، وقلت في مدحها:

قد عاب اسـلامبول مَن لم يدرِها وكـذا المليحـة عنـد ذي عُنّـة

(١) كلمة تركية معناها لباس الرأس.

ما ضارهـا إن كان بعض طريقهـا مثـل الـصـراط فإنّـهـا جَنّـة

وبالجملة فلا تعدم الحسناء ذامّاً، وقد ركبت حصاناً مرة من غلطة، وتوجهت إلى اسلامبول على القنطرة، وهذه القنطرة طويلة جداً، من رآها علم عرض الخليج لأنـه في المـرأى صغير، وذهبت إلى بالقلي ـ متنزه جميل ـ كبركة الشيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكذلك كل الطريق خارج المدنية لينة سهلة ليست كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة المطر، ٢٢/وبها كثير من الأشجار، وفي هذا المحل كنيسة الروم التي عمروها بإذن مولانا السلطان محمود عليه رحمة المولى المعبود، وكان ذلك ذريعة إلى استدعاء أرمن مصر تجديد كنيستهم لما نازعهم في ذلك علماء مصر، وقد أجيبوا، وفي هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بسلالم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون منه رؤوسهم ويشربون تبركاً، وقد وجدت فيها جآذراً وظباء، كما قال الأخطل في كنيسة الروم:

إنّ مَن يدخـل الكنيسـة يومـاً يلقَ فيهـا جآذراً وظـبـاء

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص بتقليب الأرجل بصناعة، لا بهَزِّ الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي كالكمنجة والقانون، وخيام فيهـا القهاوي والشربات ونحو ذلك، وللصغار مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفـاق بجـانب سامـر الـرقص، سامراً في وسطه ميت أرمني يراد دفنه، وجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفراً عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهمَ بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء والكلام، فهؤلاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الزقن»، وما رأيت أحداً بكى عليه ولا استعبر. وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل المخضر، ثم عديت على قنطرة أخرى إلى

مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة[1]، سمي بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيّام السلطان أحمد، وهناك يتفسح كثير من الناس، خصوصاً سكان غلطة ويتنزهون، وهناك قهوة كبيرة، وقصور حسان، وحور وولدان، وذكرت بسيري هناك في السير ٢٣/في ريف مصر أيّام النيل لكثرة الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق هذا الجبل سهلة لينة، وكله أخضر، وفيه أعمدة جليلة، مكتوب عليها بالذهب، وعليها نشان السلطان محمود، وضعت علامة على غاية رمية السهام، لأنه كان فارساً رامياً، ولضلال الجهالات والأوهام راميا، أخضل الله ضريحه، وروح بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة بالأشجار المتناسقة، فلله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها من المراضع، وقد ذهبت عند الجي الدولة الروسية في غلطة[2]، فقابلني بالبشر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر منذ أعوام، وقرأ عليّ شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها، ولما رجعت إلى اسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطلول، والعَوْد أحمد، ذهبت إلى إلجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبشر، وذلك أولاً من حسن طبيعته، وثانياً بسبب رسالة وصاية كتبها لي حامي الغرباء وناصر العلماء رئيس الديوان الأسنى والمداوي لعلل القلوب، والأسى مشير السر سينياوين، وبحسن عنايته، أتنعم في هذا السفر، كأني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

وما سافرتُ في الآفاق إلّا ... ومن جدواك راحلتي وزادي
محبك حيث ما اتّجهَتْ ركابي ... وضيفك حيث كنتَ من البلاد

(١) تقع وراء شيشلي، كانت منتزه استانبول.

(٢) أي سفير الدولة الروسية ELCI .

ثم فارقت اسلامبول، وفيَّ على فراقها أسف الثكلى، ونزلت مع الترجمان المذكور في وابور روسي ٢٣ شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني ٢٤/مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقر به العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك دره لطيفة البيوت والأشجار. ولم أجد الماء أبداً، وصرت أجري على ظهر الوابور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في اسلامبول:

أهيف من الترك خلّى القلب في تفتيت
لمّن رأى الحب من عيني عمل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي كيت
من خجلتي فت له استانبول أنا وجريت

وكان الهواء طيباً، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

الشمس إن غربت يبدو لنا قمر فنحن بين السماء والبحر في نُور

وقلت:

البحر أسود والسما زرقاءُ لكنَّ فيه سفرتي بيضاء
أنا آنس من طيب وقتي راقص ومطيتي طنانة وغناء
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها لكنني طرِبٌ فذاك غناء
ببخارها تعدو على أمثالها إن صحّ أو إن لم يصحّ هواء
وتنِق في البحر العميق كضفدع وتخافها حيّاته والماء
فالماء منها قد تغيّر لونه وعلاه نوحٌ مقلق وبكاء
هل نارها نار الجحيم أما ترى تلك المياه ومالها إطفاء
في بطنها قيظ وفي ظهر ربيع أو خريف تارة وشتاء
وركبتها فوق الأُجاج وقبلُ ما للنفس جارية حلت سوداء

فكـأنـهـا عربـية تجـري على عجـلٍ ولـكـن خيلهـا سحـراء
عامـودهـا قذف الـدخـان كأنـه بركـان نار عمّـهـا الإذكـاء
أو مثل سعلاة أطار الريح في الجـ ـو الـشـعـور ورأسهـا شمـطاء
وتخـال مروحـة الهـواء كأنهـا رقـاصـة لكـنـهـا صمـاء
٢٥/أعجـوبـة في شكلها فاقت فقُلْ في وصـفـهـا ما تشـتهي وتشـاء
هي خان زاد أو حصـان مسـافـر أو مركـب للسـير أو رمـضـاء
أو معمـل الحـداد أو هي نزهـة أو بيت سكـنـى جادَهُ الـبـنّـاءُ

ثم اتفق الإرسـاء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعاً وخمسين ساعة، وعند رجوعي كانت مدة السفر تسعٍ وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاحون أنهم وصلوا تارةً في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في الوابور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر نظرنا فيه حكيم، وأمرنا بوضع أيدينا على آباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، وذلك بعدما نظرونا ونظروا تذاكرنا مع القبطان، ثم ذهبنا إلى الكرنتينة مع أمتعتنا، فأمّا نحن فذهبوا بنا إلى محل، أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الـوقت حصـل لي خجـل عظيم، وأبيْت أوّلاً كعنيزة مع امـرؤ القيس، يوم دارة جلجل، ثم أخذنا ثياباً نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تترى، وطاقية، وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء الغجر، وقلت إذ ذاك:

ويوم أودسـا جردونـي بدلـتـي فصـرت بلا ثوبٍ كيوم ولادتـي
لبـسـت ثيابـاً غيرهـا فكـأنـني صغـير تبـدّى في قمـاطٍ ولـفـةِ

ثم ذهبنا إلى المحل المُعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوض كاملة الأدوات، محكمـة البنـاء، وحيطانهـا بالـورق المنقوش، وأُعطي لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أُحضر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب

الشخص شيئاً أُحضر. وخُبز هذه المدينة نظيف ظريف إلّا أنّ ماءها ثقيل الطعم كما قلت: ٢٦/

ولله يوم أودسا وطودها نطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها ولكن طعم الماء ليس به حُسْن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح، وليس فيها نفسها ماء عذب، إنما يجلب إليها من آبار أو عيون، وتارة يشربون من الصهاريج المملوءة من المطر والعيون البعيدة بنحو ست فرست - يعني فرسخ - روسي كما يأتي بيانه، وسبب حلاوة ماء العيون أكثر من ماء الآبار دائماً ترى العربات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء، ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعتنا، فوجدناها منشورة على أخشاب معطرة مبخرة، ومحل الكرنتينة نظيف ظريف، وهو قسمان: قِسْمٌ لمن ألمّ به الطاعون، وإذا مات فيه أحد أُحرق هو وأمتعته، وقسم لغيره. وهناك المروج، فكنا نتفسح فيها وننظر السفن الواردة والذاهبة، وإنما لم يكتفوا بكرنتينة اسلامبول لأنها جديدة غير شاقة، فيظنون أنها غير كافية، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك خصوصاً من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية، بسبب إخفاء بعض البضائع، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنتينة، وأمّا أنا فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة الحلف بالأيمان المغلظة التي منها الطلاق، فقلت: لأي سبب هذا الحلف، هم قلعونا الثياب، وصرنا عرايا بين أيديهم ثم بخروا الثياب وردوها لها (لنا). ففي أي شيء نخون الكرنتينة، فقيل لي: الروس وكل الفرنج يخافون جداً من الطاعون، ومع كل هذه الاحتياطات فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون، فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة.

والتحليف كثير عن الروس، فيُحلّفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن يكون أميناً للقيصر وولي عهده، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد ٢٧/ القيصر

يحلفون عند بلوغهم الحلم. ولنترجم هنا ما ذكره بعض مصنفي الروس في ظهور الطاعون أيام كترين الثانية سنة ١٧٧١م قال: «هذا سوط غضب الله النازل من مملكة الترك إلى الملية المجاورين لهم في وقت زحف الروس على بغداد وبلاد الافلاق». ومع وجود الكرنتينات التي رتبت في الروسيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز، دخل الطاعون في وطننا وانتشر في ٣ كانون الثاني، وفي ٩ من ذلك الشهر دبروا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط، وفي الأثناء الكبة، افترست الأخطاط الجنوبية الغربية من الروسيا، وبسبب ذهاب العسكر إلى اللين والترك كان غير ممكن إحاطة القرى الوبائية. ولهذا أخذت المملكة أوّلاً في عمل الوسائط التي توقف هذا الحادث وتقمعه، فانتخبت ابعاد سليم العيال من مربعها، وإبقاء المرضى في البيوت، ويعطى لهم من الشبابيك الأقوات على الميري بعدم الملامسة وكثرة الاحتياط، وعلى تقدير موت المطعون يهدمون بيته ويحرقونه هو وأمتعته، وهذه الواسطة كان معمولاً بها في المدن فقط، وبسبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسبب عن عدم تصديقهم بنفع هذه الواسطة انصب الطاعون كالسيل المهلك في الروسيا متقوتاً بألوف من القرابين، ومنتقلاً من محل للآخر وقبله الأخبار المهولة التي أيست الروس من الحياة، فقط الهلع والأنين يسمعان حيث الهدوء والسعادة المقترنين عن قريب قوّما معيشة الروس تحت حكم كترين الأخيرة، وفي الآخر أسوار موسقو ما حمتها من الضيف الملعون الجالب الموت، ففيها كان ظفر الموت الساكن ومنظر الجهل، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا، لكن لومهم لازم أولاً لتعلم الذرية». وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسقوب، ٢٨/بل من بلاد الفرنج، وهي جديدة العمارة من منذ خمسين سنة، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة، وكل وقت تزيد، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية، كثيرة التجارة والامتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب، بسبب انه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيباً للمسافرين في الوصول.

والمنهل العذب كثير الزحام، فلذلك تراها مملوءة بعربات المتجر، وقلّ أن

تنفك إلّا في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل لسان بسبب كثرة الغرباء، وزيادة على ذلك، إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغريبة كالفرنساوي والنيمساوي والإيطالياني، فلذلك فرض عندهم في التربية خصوصاً لبناتهم. وهواؤها معتدل في الغالب، ولكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة البضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح والأمطار بها قليلة، لم نرها إلّا ثلاث مرات مدة الكرنتينة، ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير الجو كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كالأعمدة، وتارة كالمشاعل، فتذكرت إذ ذاك حريقة مير الخليج في مصر، وكانت الأيام طويلة أكثر من مصر، فكأن النهار أكثر من ستة عشر ساعة، وهكذا كلما بعد الإنسان جهة الشمال كما تذكر في أيام بتربورغ وقد قضينا هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر والسفن فلا عيب فيها، إنها تُعد من العمر كما قلت:

وأيام على أيام مصر تطول وغينها عنّا مُحجّب
٢٩/ولست أرى بها عيباً سوى أن تعد عليّ من عمري وتُحسب

واستمريت على تعلّم لسان الروسيا مع صاحبي، وحفظت بيتين بالروسي مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتها:

الوداع الوداع ثم وداعاً يا بلادي وعزتي الأقربينا
يا بلاداً من أسعد الأرض فيها أنا قضّيت بالمسرة حينا

ثم عند خروجنا من الكرنتينة جاء حكيم آخر ونظَرَنا، ثم توجهنا إلى ديوان الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسلوا الكتب إلى محل آخر ليمتحنوها، وهكذا يفعلون في كل الكتب والجرنالات الواصلة في الروسيا، لا بد من عرضها على محك البحث، ومنع ما لا يناسب منها، ولهذا ترى في الجرنالات بعض عبارات ممحوة بالسكين، ثم بعد ذلك أخذت الكتب، وسكنت في موضع معد

للغرباء متسع نيّر، وكل هذه المواضع التي للمسافرين كذلك، وكذلك البيوت وطرقها واسعة جداً، دائماً يسمع قعقعة العربيات ليلاً ونهاراً، وفيها منتزه على البحر يسمى «البولوار» وهو أربعة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسح خصوصاً في العصارى، وخصوصاً في اليوم الذي يلعب فيه بالموسيقى مثل يوم الأحد، وفيه دكك لطيفة مثبتة لاستراحة المتفسحين، وعند طيب الهواء ليلاً تذهب الناس وتجلس هناك على السلالم الكبيرة الموصلة للبحر لاستنشاق الهواء، وقد ذهبت هناك في ليلة سكن بها الريح واستروح بنسيمها العليل كل قلب جريح:

وطـابَ ليَ الـنـسـيم فَرَقَّ حتّـى كأنّـي قد شكـوتُ إلـيه ما بي

فجلست هناك أنظر للبحر الأسود، وكان هادياً، وإلى القمر وهو ٣٠/كحسناء تارةً تحت برقع السحاب، وتارة يلوح بادياً:

والبـدر مثـل جميلة تاهت على عشّـاقهـا فـترقـبـوا الميعـادا
فيروح طوراً تحـت سُحب براقـع ويلوح طوراً حبّـذا إذ عادا

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولوار صورة رشيليي حاكم أودسا السالف، مادّاً يده إلى البحر، وواقفاً على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشياء نافعة للمدينة كأنّه منشؤها، والعادة ببناء آثار لحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئاً عظيماً خارجاً عن العادة. وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما يأتي، فلِمَ لا نعمل آثاراً لأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين؟ وليس لازماً في الأثر صورة حتى يقال إنها محرّمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبـالجملة فعلمُ التصوير علمٌ نفيس يحكي لكَ الأجيال، ويريك أباك وأُمّك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلِمَ لا نشتغل به لتشحيذ القـرائـح القـريحـة، وتعليل النفـوس الجريحة، مع الخروج على الحرمة، إمّا بالاقتصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؟ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على التعلّم شيء آخر كما قيل:

تعلَّمِ السحرَ ولا تعمَلْ به العلم بالشيء ولا الجهلُ بهِ

وقد كتب لي مسيو فرنيل في مكتوب ما نصه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير». فكتبت إليه: إني ما كتبت شيئاً من شأن الصور لأنّي رأيتها في مصر. وأحدثَت ٣١/أوّل مرة تعجّبي واستغرابي حتّى قلت:

وصورة حُسْنٍ قاتلَ الله مَن غدا يصوّرها ما باله كيف يفعل
كَلِفْتُ بفيها إذْ بدَت غير أنني إذا رُمْتُ تقبيلاً فماذا أُقَبِّلُ

وقلت أيضاً:

وصورة حسنٍ أبدع الدهرُ شكلها إلى أن تعدّى طورها لبَّ جاهل
توهّمَها من عيّه آدميّةً ولكنها قد أوتيت عيّ ناقلِ
فنهنهتهم فاستبدلوا الغيّ بالهدى فكانت لدى الشيطان أقوى الحبائلِ
فقولهم زور شبيه بصادق وزجري لهم حق شبيه بباطل

فكتب إليّ: إنّه انسرّ من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن تقال في التصوير، وإنه وجد إنساناً عشق تمثال العذراء عِشقاً حقيقياً حتى عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة، معدن هذا الفن التي رنّ فوقانها وطن، وفي آخر البولواربيت الأمير فرانسوف حاكم أودسا ـ وما صاقبها، وما قرب منها مثل بلاد القرم إذ ذاك، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبِشْر، وفرّجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة بالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكالٌ منّوعةٌ تلهي نفوس الأناسي عن أمانيها
على وفاق الهوا فوق القباب بدَت فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع فأخبرته، وهو محبب في هذه المدينة، كأنّه أبٌ للناس، مجتهد في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس، وقد عيّنه القيصر وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس، لمّا رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا يدخل في باب الحجر والتفليس.

٣٢/وفي وسط المدينة جنينة كجنينة روشتق بمصر، إلّا أنها كلها طرق، وفيها معمل للماء المعدني، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل على حسب علته، وتتفسح هناك في خلال الشرب. وهناك في هذا الوقت موسيقى في بعض الأيام، فلهذا يأتي ناس أخر غير المتداوين للتفسح. وعادة الأوروبيين أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر، فيشربون كل يوم مقداراً معلوماً كما يأمر الطبيب، منهم من يشرب أربع كبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة، ثم يشربون أخرى وهكذا، وربما سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني، وبعضهم يتداوى بالاستحمام في البحر، ويذهبون لأجل ذلك، وبعضهم يتداوى بالامرين، ومنهم من يتداوى بشرب الماء البارد الطبيعي كما في غريفين بورج من بلاد النيمسا، وهناك يتداوى تقريباً من جميع الأمراض بلا عقاقير. وفي خارج المدينة حديقة كبيرة، تسمى حديقة النباتات، تذهب الناس إليها فراراً من غبار المدينة وحرها، وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيّام الصيف، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار خارج المدينة، فمررت بين صفوف الأشجار، فكان الهواء ألطف مع قرب المسافة بسبب عدم كثرة الأبنية. وأمّا في بتربورغ، فلكثرة الأبنية خارج المدينة غالب النواحي حارّة، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد، وفي خارج المدينة أيضاً مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والخياطة والنسيج، ونحو ذلك. وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة، فقابلتني ٣٣/مديرتها بالبشاشة، وفرّجتني على جميع أوض الدروس وأوض الطعام وأوض النوم، وكلها نظيفة ظريفة، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة، ومن حيث أن نساء

الأوروبيين وبناتهم يحضرن المجالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مُهذِّبةً أخلاق الرجال، مُلطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء، فبكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدباً في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصر، إنما هي مخازن ودكاكين منظمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجار، في غاية اللطف فهذه التسمية مجازية، فتذهب الناس هناك في العصارى، ويتحلون ويتبردون، إذ هناك الحلاوات والمبردات ونحو ذلك. وبالجملة فمنتزهات أودسا تشرح الصدر والفؤاد وتنسي الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشىء عن رفاهية البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المُثرين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغربني وتحدق النظر بي خصوصاً النساء، لأن لباسي عربي بالكُلِّية، خصوصاً لما كنت أركب العربة، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر، والخيل باسلامبول، وقلَّ مَنْ يركب الخيل، فعمّ النظام، وكل عربيات الركوب بالخيل، وأمّا عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران اسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأمّا الحمير فإنّي رأيت بها أتاناً تجري في مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر، ولم أجد هناك مَن يتكلم بالعربية أوّلاً كما قلت:

إنْ جُزتَ مملكة الفرنج تجد بها ... ما تشتهيه النفس من أُمنيّه
٣٤/لكنما العربيُّ في طرقاتها ... مُستَغربٌ يبكي على العربيّه

فيه تورية باللغة العربية.

لم يلقَ فرداً عارفاً بلسانه ... أبداً ولا هو عارف الروسيّه
هو ساكتٌ إذْ لم يجد عرباً بها ... لكنه متكلِّمٌ بالنيه

ثم بعد ذلك رأيت بعض فرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني بالعربية، وقد كلمتني بنتهم في وسط البولوار، ثم قالت عند الذهاب: اقعد بعافية ـ على عادة

نساء مصر ـ فقلت حينئذ:

أمـرضـتـني عيونـهـا وهـي إن تَبْـغِ شافـيَه
مع هذا لسـانـهـا قال لي اقـعـد بعـافيه

وقلت أيضاً:

فتـاة من الافـرنـج تنـطق بالعرب فتـطربني ألفـاظهـا غاية الـطرب
لبـاقـة ألـفـاظ وسحـر لواحظٍ وثغرٍ كنظم الدُّر أحلى مِن الضَّرب
تربَّـت بمـصـر بلدتي ولـقيتهـا غريبين في مرسى أودسا فيا عجب
وقـالت بلطف بعـد طول تحـدّث بعـافية اقعـد سليمـاً من العـطب
فقلت لهـا إني فديتـك راحـل غداً وفؤادي قاعـد عنـد من أُحبّ

وصادفت في منتزه أودسا فتاة افرنجية ببرنس عربي، فذكرت بلادي التي فيها أثرى الأنام من الصبوة واللهو والصبا والمجون:

كان عيشـي بهـا عزيزاً فلا غَرْ وَ لعـيـنـي تبـكـي بمـاءٍ مهـين

وقلت:

في أودسـا بدت حسـان الغـواني يتـبـخـتـرن في ثياب الـجمـال
وأرى بينـهـن فوق فتـاة برنسـاً من ثياب عرب الـرجـال
أتـراهـا بذلـك الـلبس ترمي لسـلامـي بغـاية الآجـال
٣٥/فيهـا قد نسيت وحشـة بُعـدي وكـأنّـي بذاك بين الأهـالـي
أذكـرتـني بمـصـر كل رشـيق يزدري لحـظه بعـين الـغـزال
ونـضـتـه من بعـدمـا عَلِمتـني عاشـقـاً والهـوى قرين الـدلال
ظلم الـردف خصـرهـا مثل ما قد ظلمـتـني ولـم تَجُـد بوصـال
سجـنـتـه بين الـنـطاق أسيراً مثـل أسـرى لقـدٍّهـا الـميّالِ
هو بعض منـهـا ومـا رحـمـتـه كيف يرجـو الغـريب رحمـة قَالِ

وأنـا ميت بحـية صدغـيهـا م سليم لكـن بغـير قتـال
ليس إلّا الـلحـاظ في وسط البلـ ـوار يسـطو على الـنـهي بالنـزال
وعـيونـي تنـزهـت فجنـت للـ ـقـلب حتـفـاً أمـضّـه بالنكـال
آه من عينـهـا وعـينـي وآهٍ من جفـاهـا وصـدهـا المتـوالِ
يا أودسـا رفـقـاً بطَلٍّ غريب واستـرى كل طفلةٍ في الحجـال

وقلت أيضاً:

تبـرنست في أودسـا غادةً حسنـة من الفـرنج نفت عني الكرا وسنَه
فهـل تشير إلى أنسي ببـرنسهـا وانهـا مع مثلي تفعـل الحسنـه

وفي أودسا مارستان للمرضى، وبيت لليتامى، وفيها التياتر بالإيطالياني كتياتر مصر، إلّا أن البنية شاهقة، ذهبت إليه مرتين، الأولى أظهروا فيها السلطان محمد، وأظهروا اللاعبين بعمائم كالمسلمين وصوّروا إحراقه البلاد، وحين خرجت وجدت المـطر، فقلت: «هربت من الحريقة وقعت في المطر»، ولم يكن هناك متعمم غيري إلّا اللاعبين، فهل أنا منهم؟ لا، ويقصدون بذلك تعليم الناس أخبار الأمم وأحوالهم، فهو في الحقيقة درس أدب ومغني طرب، يقول لسان حاله:

يا مغـرقـاً في أدب الـدَّرس أفـضـل منـه أدب الـنـفس

٣٦/والثانية أظهروا فيها متدلهة من العِشق وعاشقها، ولا شك أن هذا يكشط عن القلب جلد الخشـونـة والغلظة، فبالجملة التياتر كما قال ابن عطاء الله: في الدنيا ظاهره غِرّة، وباطنه عبرة، وكما قال الآخر:

ليس شيء إلّا وفـيه إذا ما صادفـتـه عين الـلبـيب اعـتبـار

وفيه خانات مُعَدّة للطعام ومع غاية الإحكام في البناء والنظافة وعندهم قائمة بما يوجد من أصناف المأكولات فيطلب الشخص ما يريد، وقد يتفق أن جماعة

يذهبون معاً للأكل، وكل ما يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي في هذه المواضع نساء حسان يضربن بالقانون فلقد أشغلني حسن صورتهن عن حسن صوتهن، وتذكرت قولي سابقاً:

ليتني للسماع ما كنت أشتا ق ولا كنت مولعاً بالمِلاح
إنّ عيشي يمِرّ في اللهو والحز ن وعيش الغبيّ في الأفراح

ومعهن بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل مَن أعطاها شيئاً سلمت عليه بكيفية جميلة، وهذا نوع من الانحناء يسمى «ريفيرانس»، فأين صورة هذه النساء المكشوفات الوجوه من صورة من يضرب على القانون في مصر من عجائز الرجال.

تنبيه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إمّا من الاتفاق على كلمة أو استعمال اللفظة الفرنساوية وتعريبها، والروس دائماً يستعملون كلمات فرنساوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع وجود كلمة روسية، لكن استعمال الكلمات الغريبة ألطف، وهذا كما تستعمل الكلمات العربية في التركي والفارسي، أو الكلمات الفارسية والتركية في العربي، وأمّا ترجمتها بعمل التمني فلا يناسب؛
أوّلاً: هذه الكلمة للسلاطين والباشوات والأمراء. ثانياً: عمل التمني باليد، والريفيرانس بالرّجل وبينهما بَوْن بعيد.

٣٧/وقلت مخاطباً لبعض أحبائي بمصر وأنا في أودسا:

يا حبيبي بمصر ما لك تنسى ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا ر وما في الوصال قطع مرسا

«تورية بشهر مارس الافرنجي»

جاز بحر الهوى الأجاج وقاسى فوق قيس عشقاً وضعفاً ونكسا
ثم أضحى الهوا لديه حميداً فتراه في دولة الترك أمسى

عاش فيهـا فوق الخليج زمـانـاً ... في الـتـذاذ ما فيه صادف بوسـا
ثم أجـلاه دهـره وهـو خصـم ... عنـد مُسْـوَد بحـر شدة فتحسى
ويرى الـبـحـر كالسمـاء ولا أر ... ض يراهـا أفي السمـوات وأمسى
ثم طاب الهواء وأحسن لي الدهـ ... ـر فأرسـيت عنـد سيف أودسـا
بلد تلتـقـي إذا كنـت فيه ... منـزلاً واسـعـاً وخصبـاً وأنسـا
فيه تمشي الـولـدان والحـور زهواً ... في جنـان النعيم صبحـاً وأمسـا

ثم إن أودسا تسمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسم محل فيها إلى الآن. ولمـا رجعت إلى أودسـا وجدتها زائدة العمارة، حسنة الشارة، فهي كل يوم في ازدياد، إلاّ أني دخلتها في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنساني خماسين مصر، ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيدروف النائب مناب الأمير فرانسوف، تلقاني أيضاً بغاية البشر، فقلت:

لِمَ لا تقـتـدي أودسـا بأهـليـ ... ك فتـلقـيـنـنـي بأحـسـن بِشْـر

ثم إن علماء الجغرافيا قسموا الروسيا إلى أقسام: الروسيا الصغيرة، والروسيا الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقد انضمت إلى روسيا ممالك أُخر دانت لها، وانقادت كمملكة اللين والفينلاند والجرج وغير ذلك كما سيأتي.

٣٨/ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء ٢٢ أيار في عربة اشتريناها ومررنا على ديوان الجمرك الذي مررنا به أوّلاً، فنظروا العزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع رصاص ثم ختموها وأرسلوا خفيراً معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذاهب من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى أوّل محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلاّ إذا رأوا ورقـة مسمـاة البيدروجين، أو تذكـرة المرور، لكن إذا لم يكن بدروجين لا

يلجـأون إلى إعـطاء الخيل، ويأخذون مهما أرادوا من الكراء، ومع البيدروجين يلجأون إلى إعطاء الخيل بالثمن المقدر، وتلك الورقة منشنة وعليها نشان القيصر، فبغير ورقـة لا يمكن السفـر، فهي كالحـارس للإنسـان، وذلك أن تعطي الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصـل بعض شيء يكـون التفتيش سهلاً، وهذا البيدروجين تارة يشترى، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها، هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجـج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق إثبات الولادة، والتعميد والتزويج، والعتق، والقسم، وغير ذلك لا تكتب إلّا في ورق منش بنشان الروس وثمنه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأوّل ما دخل ذلك في الروسيا ٢٣ كانون ١٦٩٩م بأمر القيصر بطرس الكبير، وكان الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضْة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين ٣٩/في أيام بطرس، وبقي الأخير على حاله زماناً طويلاً، وأمّا الآن فارتفع الثمن جداً، فمن سنة ١٨٤٠م إلى هذا الوقت ثمن النوع الأول ١٥ كبيك فضة ٣٠ ثم ٦٠ ثم ٩٠، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، الأول ٩٠ لما قيمته من ١٥١ ربل إلى ٣٠٠ ربل فضة، والثاني ربل وثمانون فضة، لما قيمته من ٣٠١ ربل فضة إلى ٩٠٠ ربل فضة، وهكذا إلى الرابع والعشرين فقيمته الكاغد المنشن ١٢٠٠ ربل فضة لما قيمته ٣٠٠,٠٠١ فصـاعداً، وللتمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصـد ذكـر أنموذج من كل شيء. فأعطينا البيدروجين وأُعطي لنا خيل بالأجرة المقررة لكل فرست كبيك ونصف أو أكثر بحسب المواضع، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة، وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفـرست يعني فرسـخ، والفرست الروسي خمس ماية سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنـازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست

عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذاهب والباقي من المنزلة، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عموداً مبنياً من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب جيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذه الغاية نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول. وفي كل منزلة أفراس بالأجرة إلى المنزلة الأخرى، فكنا نغير الخيل في كل منزلة، فتارة نأخذ أربعة وتارة أكثر بحسب المنازل سهولة وحزونة، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والصحو والغيم سيان، فلا مانع أبداً ولا خوف في هذه الطرق التي هي صحارى بلا أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأةوحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب وليس بلازم للمسافر في بلاد الروسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين هذه السنة إلى بتربورغ أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق، ففتش عليها وأرسلت له في بتربورغ. والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوتها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت حقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نهر دفينا، وبالمروج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس، وأعجبتني هذه الكيفية المسهلة للأسفار. ووددت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبني رعي عجول البقر الصغار وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذاً في تلك الغيطان والأشجار التي تنقطع حتى قلت:

٤٠/

أبصرت إذ جزت على الروسيا ... أشجارها بالحسن مغبوطة
تدمشقت من حسن جناتها ... على دمشق الشام والغوطة

وقلت:

لو الحريري أبصر الروسيا لقال فيها جنة الدنيا
أو عدّها أوّل جناتها لكنه لم يحظ بالرؤيا

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم، ثم اعتدت عليه، وهي أسهل المركوبات بعد السفن على أنّها ٤١/سفين بر الفرنج كما أن الإبل سفين بر العرب كما قلت:

وألذ المركوب ما معه يسهل إذ ما تروم الرقاد

وقلت كذلك:

عربية العربي جرّ ته إلى تلك البلاد
فيها مشاربه صفت وبها أُتيح له المراد

وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط، وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت في أوّل السفر، فقلت:

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها رفعوا برانطهم لأجل سلامي
حتى السما حيّت ببرقٍ ضاحك والأرض رشّت ساعةً قُدّامي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علته في الواقع، كقول آخر:

وما نزل القطر إلّا لكي يُقَبّل بين يديك الثرا

فإنه من البيتين، أن علة نزول القطر وسبب البرق ليست إلا التحية والإكرام والتقبيل، وهذا من التلاعب بالكلام.

ومررنا على أنهار كثيرة أوّلها نهر بوخ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف يجر بحبل كمعديّة أبيار من قرى مصر، وقد شربت من مائه العذب عند المرور. قلت: وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر، وهناك جبل مخضر في وسط البيوت

اللطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذهبة، وصرت أتعجب من حسن هذا المكان وأقول: ليس في نواحي بتر بورغ مثل هذا المحل في طيب الهواء وحسن الموضع. وهناك انسلخ منا جلد تلك العجلة الحديد، فأعطيناها الحداد ليثبتها، ثم بعد مدة انسلخ ثانياً في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهلة ونقول: العجلة من الشيطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان ٤٢/.

ثم وصلنا كييف Keiv يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندره، وهذه المدينة كانت كرسي مملكة الروسيا أوّلاً وعليها آثار القِدَم، وهي مقدسة عندهم، بها كثير من جثث قسسهم المقدسين يزورونهم في الكنائس، ولهذا كثيراً ما يحجون إليها كما إلى بيت المقدس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل أيا صوفية وقد طلعت على كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة وهي كثيرة الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينيبر Dnieper، وهو من أنهار الروسيا الكبار، ويتصل إلى موهلوف Mogilev، وحولها غابات كثيرة ترى سوداء من بعيد، وقد رأيت فيها النّظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقليب أرجلهم كالموج وقلت:

لا تعجبوا إنْ كان أهل الروسيا ... أُسد الحروب فأرضها غابات
إن فاتني في مصر أحسن روضة ... فلدى بلاد الروسيا جنّات

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعة حول القلعة إظهاراً لقوتهم، وإشعاراً بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية ومتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرباب الجلال، قد تدنس فسطانها فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك:

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها ... قلبي فها هو مرتج على الكفل
ورفعت بيديها الذيل من طبع ... أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
وبدلته سريعاً وهي قائلة ... هذا جزاء الذي قد راغ من قلبي

ولما رأتني أديم النظر إلى حسنها، سمحت بإرسال رسول الصفا، فقلت وقد عراني انقباض وجفا:

٤٣/مـذ أرسلت ديوثهـا لي عفتهـا خجـلاً وقـلبي بالـعيان قنـوع
وأبيت حسن وصـالها مع حبها إن الـمحبـة بالـوصـال تضيع

فكأن قلبي سلك طريق سليك بن السليكة القائل:

يعـاف وصـال ذات البـذل قلبي ويتّـبـع الـمـمنـعـة الـنـوارا

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال، صارت تجري أمامي محلقة على دجاجة بيدها فقلت:

صادف فؤادي عنـد كيف رشيقـة سحـرتـه بالنفثـات من شفتيها
قد سرت عنها وهـو باقٍ عنـدها بث الهـوى الإيمـاءُ من عينيها
دجت على أثـر الـدجاج وحلقت نحـو الأمـام برفـعـهـا ليديهـا
فكـأنّ ذا منـهـا عنـاق مودّع لمـا رأت أنـي أمـيل إلـيهـا

ودائماً تسمع في كييف دق الأجراس، وكذلك سائر البلاد، فإنها مشحونة بالكنائس خصوصاً المدن، وقلت مكتفياً:

وسـامـرتـهـا والـليل مُرْخٍ ذيولـه علينـا كأنّـا قاضيان على الـهـوى
ومـذ سمعت صوت النواقيس هرولت تصلي فراعت مهجتي ضربـة النـوى

النوى: مختصر من النواقيس، وهذا هو الاكتفاء. أو بمعنى البعد، ولا يحسن الاكتفاء إلّا إذا اشتمل على التورية كهذا، وكقولي:

شكـوت للمحبـوب نيران الجـوى بكـبـدي فمـاس تيهـاً وقـلا
وقـال لي أنـت الـخـليل لي فلم لا أصـبـحـت عليك برداً وسـلا

فإن سلا إمّا مختصر من سلاماً أو فعل من السلو، وعلى ذكر النواقيس قال الحاجري:

مذ قام يضـرب بالنـاقـوس قلت له مَنْ عَلّم الـظبي ضربـاً بالنـواقيس
وقـلت للعـين أيّ الضّـرب يؤلمكي ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وعليه مؤاخـذة أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقّه أن ينسبه ٤٤/للقلب، وكأنه قاسه على قرة العين، والفرق ظاهر، لأن قرة العين سكونها عن الطماح أو بردها سروراً، وهذا ناشىء عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء الناشىء عن حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشىء عنها، فالعين تنظر فيألم القلب فتبكي العين، فكأنها جوزيت حيث كانت السبب، فاقتسام الحظ مع القلب وبكائها برداً للسرور وحاراً للحزن، فسبحان اللطيف الخبير، وأيضاً فلا يحسن الذوق الأدبي إشباع "الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضاً فإن ضرب النواقيس من حيث هو لا يؤلم من حيث انه بسبب الفراق، كما فعلتُ في شِعري. وعلى ذكر النواقيس، فلنذكر الناقوس الخالد وهو في موسقو في حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلالم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات المشهورة انه كان معلقاً في نوفغورد (Novgord)، ونقل إلى موسقو وعُلق، ثم لفرط ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سآمة من طول الانتصاب، لكن حقق بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانياً، لكن بصرف ألوف الرُبل، ويظهر كجبل من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم، ولهـذا يميل لونـه إلى البياض الفضي ويلمـع، والفـلاحون يزورونه في الأعياد ويعـظمـونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويُصَلّبون. ومحيط دائرته على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدماً وأربعة ٤٥/أصابع، وعلوه أحد وعشرون قدماً وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعاً،

ووزنه أربعمائة وثلاثة وأربعون ألف وسبعمائة وسبعون رطلاً، وقيمته ستة وستون ألفاً وخمسماية وستون ليفر ستيرلانسك وستة عشر كبيك، مبلغ جسيم، وأثر عظيم يبلى الـدهر ولا يبلى. وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية نواقيس يوحنا الكبيرة التي أعظمها أربعة آلاف بود، لكن يتعجب كيف تقدر الحيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضروري لصيرورته مصوتاً رناناً. وفي كييف (Kiev) مدارس؛ منها مدرسة البنات، وقد أعجبتني في ظاهرها، فكيف من باطنها ع تعني مثال «الغصين هذا فأين الظل والثمر». وفيها مواضع كثيرة ترصد فيها الحريقة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء، وعند بيت حاكم كييف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلو مع ستر أغصانها لطرق الحائط، وفيها قلاع مبنية بالأحجار وكذلك بيوت كذلك وبالخشب كبيوت الـريف، وكـل السقـوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر، وحكمة ذلك سهولة انحدار الأمطار والثلوج، ثم خرجنا من كييف يوم الاثنين ٢٧ أيار من باب آخر مقبب، وهناك عدة قنوات تمر السايلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معـدية كبيرة، وكـذلـك نزل عربيات وخيل وناس كثير، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار، وهناك معامل كثيرة تضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة ثم خرجنا مع العربية من المعدية، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرىء القيس:

فلمـا أجـزنا ساحة الحي وانتحى بنـا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

لكنها ليست كبيرة، بل الأشجار غالبة بحسنها وتمايلها، وفي هذه النواحي رأيت الفـلاحين يحرثون الأراضي، كما في مصر، إلّا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل، ومررنا على الغربول (Garbul)، وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار، وهناك لما نزلت للاستراحة أحدق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب، وهكذا في جميع الطريق، وقد اتفق أني رأيت فتاة

ظريفة الشكل في بعض المحطات، فصارت تنظر إليّ وصرت أنظر إليها، وكان المطر أحسن إلي بالوقوف أمامها فقلت:

هيفاء من شباكها قد رنت ... نحوي وقد طار جناح السفر
أحسن شيءٍ راقني أنها ... تحب أن أُحدق فيها النظر
رُمّان نهديها بدا نصفه ... والوجه كل الحسن فيه ظهر
لا كعذارى مصر يخفين من ... حسن المحيا غير غُنج الحور
أبدت ثنايا بعقيق اللما ... قد ختمت لا بعقيق الحجر
أوقفني في حبّها برهة ... حتى برؤياها نعمت المطر

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس ٣٠ أيار، وبهذا وضعنا عصا التسيار، وأقمنا بها مدة ٢٣ يوماً:

دخلنا على أن المقام ثلاثة ... فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها دينيبر Dnieper، وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يوماً حسناً، لأن التلامذة كانوا يلعبون بالموسيقى، ويغنون، وفي آخر يوم آخر ذهبت إلى المدرسة، وتفرجت على المغناطيس وجذبه، فذكرت قول الشاعر:

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا ... فحيثما درت دارت نحوك الصور

٤٧/وقلت:

ما حيلتي في حب غانيةٍ ... قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا ... لا غرو أن قلبي الحديد صَبا

وذهبت يوماً آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي تحت سقيفة لطيفة تقي من المطر، وكان معنا حسان فقلت:

مضى زمنٌ في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند عين تدفقت فلله في أنسي وحزني عينان

وعليّ في تثنية العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله:

جاد بالعين حين أعمى هواه عينه فانثنى بلا عينين

مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء. وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة التي عندها مدرسة البنات، فصرن يجرين نحوي، وتفرجت على ضَرّابي الطوب خارج موهلوف، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم ليّناً كما في مصر، وتفرجت على قاعة كبيرة مسقفة للنظّام إذا كان المطر، وهي مثل قرا «ميدان» في مصر. وذهبنا إلى الزروع وبتنا في الضياع ليلتين، ووصلنا إلى بودن، ورأينا عندها عيناً تجري تنبع من الرمل على وجه الأرض، وقد وضعت فيها عصاً كانت معي فدفعتها قوة الماء، وهي محفوفة بكثير من الأشجار ومبني عليها حاصل صغير. فلله تلك العين ومنظرها الذي تقرّ به العين، ويسهل فيه إنفاق العين كثرة العيون، وتفرجنا هناك على صيد السمك من النهر الخارج من تلك العين، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جداً، فطأطأت رأسي لكي يسهل عليّ به التجديف، وقد استحوذ عليّ شيطان البق في إحدى ٤٨/ الليلتين، فبت بليلةٍ نابغية. ورأيت معمل القطران، وشجر البندق، وغير ذلك من أنواع الزروع كالبسلة والقمح الأسود والشعير والبتاتس، ورأيت زرع الفواكه كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار، ولا تخرج هذه الفواكه إلّا في الشمس، فلذلك تقل الفواكه في تلك الديار مع كثرة أشجارها، فليست كمصر، فإنها كثيرة الثمار جداً من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين برشومي وبلح أحمر وأخضر وأصفر. . إلخ وقثاء، وخيار وقاون وتفاح وموز وبرتقال وقصب السكر. وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين، ومن الخضار كالمولوخيا والباميا والقلقاس، وذلك لا يوجد في هذه البلاد غير ذلك مما لا يحصى مع رخص السعر جداً، فلذلك قلت:

لله مصـر وحـسـن تربـتـهـا ونـيلهـا بل رياضـهـا الـنـضـره
إن كانـت الـروسيا نمت شجـرا فإن أشـجـارهـا بلا ثمـره

إلّا أن الفواكه تحفظ كثيراً في هذه البلاد، فالعنب لا ينقطع أبداً من بتر بورغ، والبرتقال يمكث فيها غالب السنة، وفي موهلوف رأيت كثيراً من البنات الصغار يلعبن بالقانون، ويرقصن عليه ويغنين، فقلت حين أطربني ذلك:

هويت افـرنـجـية طفـلة تبـرقـعـت بالـحـسـن والـدلِ
تلعـب بالـقـانـون حينـاً كمـا تلعـب بالـقـانـون في وصـلي

وقلت:

بعـدمـا أطـربت بشـدو لحـون رقـصـت مرة على الـقـانـون
وتـثـنـت في رقـصـهـا وتهـادت فتـبـدلـت حشـمـتي بالمجـون

ثم بعد ذلك رأيت النساء أيضاً يلعبن ويرقصن من غير ٤٩/نكير، وهذه عادة تلك البلاد، إلّا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره بحضرته من غير إحساس بغِيرَة، ويعدون ذلك من الأدب واللطف، وتقضية الزمان بالحظ والمسرة، ودائماً محادثتهم مصونة عن غير الأدب، إلّا أنه تارة ينشأ من ذلك العشق والفساد.

وفي موهلوف حمـام، وقـد استحممت فيه وحدي، لأني كنت عند صاحبه فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معاً، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون، فليس معيباً عندهم كشف العورة في الحمامات، وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامات مصر واسلامبول المشتملة على عدة مغاطس وحنفيات، بل فيه طشوت وأسطال مملوءة ماءً بارداً وحاراً وصابوناً وأغصان أشجار صغيرة يضربون بها أنفسهم، وهذا نمـوذج لحمامات بتر بورغ إلّا أن فيها حوضـاً كبيراً مملوءاً ماء للاستحمام، وفيها الحماميون يغسلون الشخص بالليف والصابون، إلّا أنهم لا يكيسون، وبالجملة

ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أُوض من خشب، أو حجر مدفأة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكييس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشيعنا أقاربه وأصحابه بعض أميال ودّعونا، فكان ذلك الوقت مشبهاً لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

لله أيّامٌ تقضّـ ـت بالصفا في موهلوف
كم مِنْ حِسانٍ أبصرَت عيني وكم خِلٍّ ألوف

٥٠/ لا تنكروا زرق العيو ن فهكذا نصل السيوف

ثم جزنا في الليل على قرية صغيرة تسمى اسكندرية، وقد استحوذت شياطين الحريقة على بيوتها، وعند ذلك رأيت أهل القرية محدقين حول النيران، ولا يستطيعون إطفاءها، وقلت ملوحاً بقصة إسكندر ذي القرنين:

ولما بدت اسكندرية سحرة رأيت بها نار الحريقة لا تهدا
فهل خوف ياجوج ومأجوج قد أتى هناك ذو القرنين يبني بها السدا

وقبل الوصول إليها بدا اللهيب، فكنا نظن أنه شفق. فهذه الليلة كانت كليلة ابن بابك حيث قال:

وليلةٍ بتُّ أشكو الهمَّ أوّلها وبت آخرها أستجذب الطربا
في غيضة من غياض الحزن دانية مد الظلام على أرواقها طنبا
يهدي إليها مجاج الحمر ساكنها فكلما دبَّ فيه أثمرت لهبا
حتى إذا النار طاشت في ذوائبها عاد الزمرد من عيدانها ذهبا

ثم مررنا على فينسيك VENESK ، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من اليهود

مثل موهلوف وسائر البلاد التي جزنا عليها، ومن بعدها بقليل تَقلّ اليهود، فلا يُرى إلّا محض الروس خصوصاً في بتر بورغ، إذ ممنوع فيها سكناهم، فمن جاء لوقت معين. وبها كثير من الكنائس، وأقمنا بها يومين، وذهبنا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقها الكثيرة الأزهار، ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت صحو كما في غالب الطريق والبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر. ثم في يوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمت الآفاق، وذلك عند القرب من بتر بورغ فقلت:

أنا يا بتر بورغ جئتك بالبـ ـشرِّ وتلقيني بوجهٍ عبوس
٥١/أنتِ غضبى عليّ أم ذاك تيهٌ ودلالٌ والتيه شأن العروس

ثم بعد برهة بسمت الشمس بالإشراق فقلت:

عند ازدياري بتر بورغ رأيتها بنت السرور يضمها ابن سحاب
خافت وذا ماء البكاء وقبلها خافتني الأبكار لاستغرابي
أو أنها استحيت وذا عرق الحيا والبكر يخجلها لقا الأغراب
ما زلت أخدعها بلين مقالتي حتى تبسم ثغرها لخطابي

وفي قرب بتر بورغ تسارسكيا سلو[1]، مسكن العائلة الامبراطورية في الصيف، وفيها بستان كبير محفوف بالأشجار المتناسقة والجداول المتدفقة والقصور الشاهقة والأزهار الباسقة والطرق إذ ذاك بين سطرين من الأشجار كما في غالب الطرق، فأذكرني ذلك طريق شبرا بقرب القاهرة، إلّا أن الأشجار في هذه الروضات أكثر لكن في تلك أطيب وأبهى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهذه طريق العربات، وهناك أخرى، وهي طريق الحديد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفاً وشتاء، إلّا أن الصيف أكثر، فتذهب الناس أفواجاً للتفسح هناك والتفرج على ما هناك من

(١) أي قرية القيصر، وهي قرية صغيرة.

العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة، وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفين بالألماس أهداهما السلطان محمود إلى القيصر، وهناك بيت للفيل والفيلة، وللأغنام الغريبة، وسائر الحيوانات الغريبة الشكل. ثم من تسارسكياسلو تذهب عربات البخار إلى بافلوسكي ـ منتزه جميل فيه بستان كبير ـ وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطىء تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الريحان. ثم مررنا على الرصد، لكن ما رأيته إلّا بعد مع جناب ٥٢/سفير جوقند العالم العلامة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشراف، وقد شربت معه أفاويق الأدب، واستجلينا عرائس الطرب، ورأينا النظارات المكبرة التي تُرى بها النجوم، ورأينا بالنظارة من هناك هلال كنيسة إسحاق مع بعد المسافة، وما رأيت من السفراء الوافدين إلى بتر بورغ من ذوي الفضل والأدب إلّا هو وجناب سفير الدولة العلية حضرة فؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجاذبنا كما قال الحريري أطراف الأناشيد، وتواردنا طرف الأسانيد؛ فوجدته تعْلمة نقّاداً، وألِفْتُه روحاً لجسم الأدب، ولا بِدَع أن سُمّي لذلك فؤادا. وفي تلك السبل صارت الخيل تجري كالطيور، والأرض تطوى كطي الزابور، فتمثلت بقول الشاعر:

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

وسبب ذلك أن هذه الطرق مثبتة بالأحجار الصغيرة، وتسمى منعولة كأنها لابسة نعلاً، فما ألطف مشي العربات عليها بخلاف الطرق غير المنعولة، فيعسر عليها مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمادى الأولى، دخلت بتر بورغ:

وكان آخر عهد الطرف من فرحٍ ... بالدمع أوّل عهد القلب بالجَلَدِ